

أزوع القصص

للكتاب العبقري والمصالح الاجتماعي تشارلز دكنز

بقلم

محمد عطية الأبراشي

فروع ما منى أكسز لندن

الأستاذ بدار العلوم



ملتمزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف وكتبتنا بمصر

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فهذه القصص صور من الحياة الإنسانية ، ومثل لما ينتابها من الآلام ، دعاني إلى تقديمها إلى الشعب المصرى الكريم شغف بالتقويم الخلقى ، وحب للإصلاح الاجتماعى فى مصر ، وترغيب المتعلمين فى القراءة والاطلاع ، وتزويدهم بكثير من الألفاظ والعبارات والأفكار ؛ لتكون ذخيرة لهم فى حياتهم العملية والأدبية .

وسيرى القارئ فيما كتبه عن « تشارلز ديكز » أنه كان أديباً إنكليزياً كبيراً ، ومصلحاً عظيماً ، ينصر الضعفاء ، ويدافع عن اليتامى والفقراء ، لا يفكر إلا فى الإنسانية ، ولا يكتب إلا للإنسانية ، وقد كان لكتابه أثرٌ كبير فى إصلاح الحياة الاجتماعية بانجلترا فى القرن الماضى .

وإن ما كتبه (ديكز) عن حياة الطبقة الفقيرة بانجلترا لا يبعد كثيراً عما نراه أمامنا فى يومنا هذا بين المجتمع المصرى من

الحاجة إلى الإصلاح الاجتماعى والخلقى والصحتى والعلمى فى كثير من نواحي الحياة .

وإني إذ أقدم للقراء تلك الخلاصة من روايات (دكتور)
أمل أن يكون لها فى مصر والشرق من الأثر الحسن ما كان لها
فى المجتمع الإنكليزى من قبل .

وقد روعى فى كتابتها المحافظة على الغرض الأسمى الذى من
أجله وضعت هذه القصص ، وهو حب الإصلاح ، مع العناية
بجزالة اللفظ ، ورسانة الأسلوب ، بحيث يجد القارئ ثروة
فكرية ، وخيالية ، ولغوية ، فى كل قصة يقرأها .

فإن وفقتُ فى أداء بعض الواجب نحو مصر العزيزة
والأم الشرقية الصديقة بنشر تلك القصص الخلقية والاجتماعية
فذلك ما أبنى .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلتُ وإليه أنيبُ .

محمد عطية البراسى

١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٥٧

٦ من فبراير سنة ١٩٣٩



تشارلز دکنز

حياة تشارلز ديكنز

في قرية (لاندبورت) بانجلترا كان يعيش أبواه . وقد كان الأب فقيراً ذا أسرة كبيرة ، فاضطُرَّ إلى الاستدانة ، وظل سنين طويلةً يقاتلُ الحياةَ ، والحياةُ تقاتلهُ ، حتى حُكِمَ عليه بالسجنِ في (مرشالسي) لعدم الوفاء بما عليه من الديون .

نزلت الأمُّ إلى مُعْتَرِكِ الحياة لتعمل ؛ كي تعملَ^(١) أولادها الثمانية بعد أن سُجِنَ زوجها وفُصِلَ من وظيفته ؛ ففتحت مدرسةً لتعليم البنات ، ولكنَّ سوءَ الحظِّ لازمَ تلك الأسرة ؛ فلم يقبلِ على تلك المدرسة أحدٌ ، ولم يزُرْها سوى المطالين بديونهم . وأمامَ قسوةِ الحياة لم تجد الأمُّ مفرًّا من إخراج ابنها (تشارلز ديكنز) من المدرسة ، وإرساله إلى المصنِّع ليكسبَ معيشته بنفسه ، ويتمكَّنَ من مساعدة أسرته ، ويتقَى شرَّ الفاقة والاستجداء . فودَّعَ المدرسة مُكرهًا ؛ ليعملَ بالمصنِّع نهارًا ، وهو غلام لم يَعدْ^(٢) الثانية عشرة من عمره .

(١) تأتي بالقوت وتنفق عليهم (٢) لم يَعدْ : لم يتجاوز .

كان (تشارلز) الابن الثاني من ثمانية أولاد ، وقد وُلِدَ لسبع
خَلَّتْ من فبراير سنة ١٨١٢ م . وحينما كان بالمدرسة أظهرَ ميلًا
للدرس ، وحبًا للقراءة ، وشغفًا كبيرًا بالقصص . وقد كان دقيقَ
الإحساس ، رقيقَ العواطف ، واسعَ الخيال ، حادَّ الذاكرة ،
قويَّ الملاحظة ، كثيرَ الصبر ، مرحًا طروبًا لا تكاد الابتسامةُ
تفارق شفتيه . وقد منحه الله صوتًا عذبًا ، وقُدرةً عجيبةً على
محاكاة الأصوات التي يسمُّها .

قاسى (تشارلز دكنز) كثيرًا من البؤس والشقاء وهو طفلٌ ،
وكان ينامُ في البردِ كقطعةٍ مُشرَّدةٍ لا تجدُ لها مأوى . وكثيرًا ما باتَ
على الطوى^(١) . اختلطَ بصنَّاعٍ تنقصُهم التريسةُ والتهذيبُ ؛
في أخلاقِهِمْ جَفَافٌ ، وفي طباعِهِمْ خُسُونَةٌ ، وفي مُعاملاتِهِمْ قَسْوَةٌ .
وقد أفادته تلك الأيامُ التي قضاها في المصنِّعِ - في حياته المستقبلية ؛
إذ كانت منبعاً فياضاً لا يفيض^(٢) مَعِينُهُ ، ولا تنضبُ^(٣) مواردهُ ،
حينما أراد أن يُصورَ حياةَ الفقراءِ والمساكينِ واليتامى وأبناء السبيلِ
بتلك الصورِ المحزنةِ التي جعلتِ الشعبَ الإنكليزيَّ وقتئذٍ يلمسُ
في خزيِّ وخجلِ ما يُمانيه الفقراءِ من فقرٍ ومتريةٍ ، وذُلِّ وشقاءٍ ،

(١) الطوى : الجوع (٢) غاض الماءُ : قلَّ ونضبَ

(٣) نضب الماءُ : غار في الأرض .

ومتاعبَ وصِعبٍ؛ في أعمالهم ومساكنهم ومدارسهم ومستشفياتهم
وملاجئهم وسجونهم ومصانعهم .

بعد حين قيض^(١) الله لتلك الأسرة من يُنقذُ عميدها من
السجن، ويؤدّي ما عليه من الدين . وبذا أتاحت الفرصة (لتشارلز)
أن يعودَ إلى حياةِ الدرس والتحصيل ، وأدخلَ مدرسةً لم يجد فيها
ما يروى ظمأه ، ويُطفي غلته^(٢) ، فأنهت صروحُ آماله ، وأخذَ
يعتمدُ على نفسه في القراءة والاطلاع .

ولما بلغ من العمر خمسَ عشرةَ سنةً اشتغلَ كاتباً لدى أحدِ
المحاميين ، ثم تعلمَ فنَّ الاختزالِ ؛ ليتمكنَ من أن يكتبَ لإحدى
الصحفِ ما يُلقي في مجلسِ النواب من خطبٍ ، وما يدورُ فيه
من مناقشاتٍ .

وبعد عامين اشتغل بالصحافة وأخذَ يجوبُ القرى ، ويختلطُ
بالفلاحين ، ويكتبُ مذكراتٍ عما يشاهدُ ويرى في الريف ،
ويبعثها^(٣) إلى الصحفِ . وفي هذه الفترة اكتسبَ كثيراً من
التجاربِ ، وعرفَ كثيراً عن الحياة والأخلاقِ والماداتِ .

(١) قيض الله فلاناً فلاناً : أي جاءه به وأتاحه له .

(٢) الغلة : حرارة العطش . (٣) برسلها .

اتسمت آمالُ (دكنز)، وأخذ يكتبُ مقالاتٍ للصَّحفِ ،
فتفتَّحتْ له أبوابُ المجدِ والخلودِ، واندفع إلى العملِ، يحدوه الأملُ،
ويحفِزه^(١) الرجاءُ. وجدَّ القراءَ لذةً في قراءة ما يكتبُ ؛ لأنه كان
يَصِفُ الحياةَ، وما في الحياةِ، بدقَّةٍ كبيرةٍ، وتصويرِ نادرٍ، وأسلوبِ
عذبٍ، فأقبلوا على مقالاتِهِ، فقدَّره أصحابُ الصَّحفِ حقَّ قدرِهِ،
وأخذ حَظُّهُ يرتفعُ، وبدأتِ الحياةُ تَبْسِمُ له، وقُرِّرَ له خمسةُ (جنيهاً)
في الأسبوعِ، زيدتْ إلى سبعةٍ بعد قليلٍ. وهذا قدرٌ لم يكنْ يحلُمُ
به كثيرون من كتَّابِ انجلترا وشعرائها في ذلك الوقتِ. ثمَّ جمعَ
مقالاتِهِ في كتابِ باع حقَّ طبعِهِ بمِئتين ومائةٍ (جنيه) وهو في
الثانية والعشرين من العمرِ.

أما بقيةُ حياةِ (دكنز) فكانتِ انتصاراتٍ تَلوِّها انتصاراتٌ،
ترتفعُ باسمِهِ إلى عالمِ النبوغِ والعبقريَّةِ والخلودِ في عالمِ الأدبِ .
ألَّفَ كثيراً من الكتبِ والرواياتِ المملوءةِ بالمضحكاتِ والمُبَكِّياتِ،
ووفَّقَ في تمثيلِ بعضِ رواياته توفيقاً كبيراً، وأكثرَ التنقلَ بين
المدنِ لإلقاءِ المحاضراتِ، وتمثيلِ الرواياتِ، فأقبلَ عليه الجمهورُ

(١) يدفعه ويسوقه .

المتعطش لرؤيته وسماعه من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ ، ودرَسَ بِيئاتٍ
جديدةً ، واكتسبَ أموالاً كثيرةً ، واشترى لنفسه البيتَ الذي
كان يتمناه في الحياة .

دُعَى (دِكْنَز) في سنة ١٨٤٢ لزيارة الولايات المتحدة وكندا ،
فلبى الدعوة ، ونزل ضيفاً مكرماً على الشعب الأمريكي ،
وقدّرت مؤلفاته التقديرَ كله ، وربح كثيراً من المال ، بيد أنه
كان يُنفقُ أكثرَ مما يربحُ . وبعد أن كانت حياته الزوجية
سعيدة تغيرت تلك الحياة ، وانقلبت إلى عناءٍ وشقاءٍ ، ففارقَ
زوجه سنة ١٨٥٨ م .

تعبَ (دِكْنَز) كثيراً في حياته ، وأجهدَ نفسه في تأليفه
وتمثيله ومحاضراته ؛ حباً لإرضاء الشعب . ونابرَ على عمله حتى وافاه
القدرُ المحتومُ في التاسع من يونيه سنة ١٨٧٠ م ، وهو في
الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن سطرَ اسمه في سجلِّ الخلود .
فخرنت انجلترا لوفاته حُزناً على (شكسبير) وقد أُودِعَ جثمانه
مع العظماء وقادة الرأي والعمل في (وستمنستر آبي) .

وإن نظرةً واحدةً إلى (دكنز) في حياته تبين لنا أنه وهب نفسه وحياته لبلاده ، وكان من القادة الذين تجودُ بهم الطبيعة ليكونوا رسلَ خيرٍ وإصلاحٍ لأوطانهم . استطاع بنقده اللاذع ووصف ما يقاسيه الفقراء من آلام - أن يُبكي كثيرين من قراءه لم يروا تلك الحياة ، ولم يسمعوها شيئاً ، وبلغت قادة الأمة إلى تلك المخازي التي تُودي بالشعب ، ويدعوهم إلى العمل على تحسين مُستوى الطبقات الفقيرة من النواحي العملية والخلقية والعقلية والاجتماعية والصحية .

لم يستفد عبقرى من البيئات التي عاش فيها كما استفاد (دكنز)؛ ولعل ذلك راجع إلى قوة ملاحظته ، ومثابرته ، وقدرته على استعادة الصور التي يراها في المجتمع ، وإلى خياله الخصب الذي كان يُسبغ على الحقائق في الحياة ثوباً قشيباً جذاباً فيه شيء من المبالغة التي تستسيغها النفس ، وتتطلبها الدعوة إلى الإصلاح ، تلك الدعوة التي وهب رُوحه لها . استطاع أن يصوّر الأمور المادية من الشارع والحانوت والضباب بثروة من الصور الخيالية التي تُعطي تلك الأمور المادية حياةً ، بحيث يشعر القارئ بما يصفه (دكنز)

كأنما يراه بعينه ، ويسمعه بأذنيه ، ويدوقه بلسانه ، ويمسه بيده ،
ويشمه بأنفه .

وبقوة ما كان يشعر به (دكنز) استطاع أن يُخاطبَ القارئَ
بقلبه ، ويسيطرَ عليه ويمتلك حواسه ونفسه ، فيُكيه حيناً ،
ويُضحكه أحياناً ، وينتقلُ به من البكاءِ إلى الضحكِ ، ومن الضحكِ
إلى البكاءِ . وهي صفةٌ ظاهرةٌ في كتابته ، تُلازمه ملازمةَ الظلِّ
للإنسان ؛ فبينما تنسى نفسك وتبكي وأنت تقرأ ، ينتقلُ بك إلى
صورةٍ أخرى تضحكك وتبعث السرور في نفسك ، كأنه يُشفقُ
عليك من البكاءِ .

وإنها لمقدرةٌ عظيمةٌ تلك التي تمكنُ صاحبها من أن يُضحكَ
ويُبكيَ من يشاء كما يشاء ، في الوقت الذي يصفُ فيه بطريقة
قصصية عيوبَ المجتمع ؛ محاولاً أن يصلَ إلى العلاج الذي
يراه ويرتضيه .

كان (دكنز) يعيل إلى المبالغة ليؤثرَ في نفوس قارئيه ، كي
يعملوا على إصلاح المجتمع ، وإزالة ما به من شرورٍ وآثام ، ومظالمٍ
وآلام . وفي كل روايةٍ من رواياته كان يتجهُ إلى إصلاح بعض

نواحي الحياة. وإن كانت انجلترا مدينةً لأحدٍ فهي مدينةٌ (لدكنز) في إصلاح حياتها الاجتماعية.

ولقد كان لما لاقاه (دكنز) في طفولته وغلومته وشبابه ورجولته، ولما منحه الله من ذكاءٍ نادرٍ، وعاطفةٍ نبيلةٍ، ولسانٍ فصيحٍ، وخيالٍ قويٍّ، وبديهةٍ حاضرةٍ، وملاحظةٍ قويةٍ، ومنطقٍ سليمٍ، ومثابرةٍ عظيمةٍ، ونفسٍ مريحةٍ، وميلٍ إلى الدعابةِ - أثرٌ كبيرٌ في نجاحه في كتابته وتمثيله، وفي امتلاك قلوب الشعب، والعمل على تقويم مُعوجّه، وإصلاح عيوبه. ولا عجبَ إذا أحبّه الشعبان: الإنكليزي والأمريكي.

كان (دكنز) في كتابته الكاتب المبدع، والفنان القدير، والمصور الماهر، يُصور ما لحظه في الحياة، ويصِف ما أحسّه، وما شعرَ به؛ يُصور ما رآه بعينيه، وما سمعه بأذنيه، وما لمسّه بيده. لا يعرف الرياء، والرياء لا يعرفه. لا يحبُّ النفاق. والنفاق يُبكره.

كان في بدء حياته فقيراً جربَ آلامَ الفقر، ولا يحس آلامَ الفقر من الجوع والعُرى والبرد إلا من شعرَ بالفقر وذاقَ مرارته. وضع نفسه موضعَ الفقراء، يُدافع عما لحقهم من ظلمٍ وعدوانٍ،

وَيَنْتَصِرُ لِلْمَظْلُومِ ، وَيَشْجَعُ الضَّعِيفَ ، وَيُدْخِلُ الأَمَلَ فِي قَلْبِ
مَنْ لَا أَمَلَ لَهُ وَلَا رَجَاءَ ، فَأَحْبَبَهُ القُرَّاءُ كُلَّ الحَبِّ . وقد كانت
مشاركته الجمهورَ فِي شعوره سرًّا من أسرارِ نجاحِهِ فِي حياتِهِ الأدبية .
وهو فِي هذا كَشَكْسِيرِ فِي دراستِهِ نفسيةَ المجتمع ، وتقديره
لشعوره ، يتألم لما يؤلمه ، وَيُسْرُ لما يُسْرُه ، وَيَشعُرُ بما يشعُرُ به .

كُتِبَ (دكّنز) عن المستشفياتِ والمصحاتِ والملاجئِ
والسجونِ والمدارسِ ، ووصفَ ما يقاسيه نزلًا وأهًا من ظلمٍ وقسوة ،
وما يجرى فيها من فوضى وإهمال ، ثم عرض لأولئك المشردين
الذين يندرعون الشوارعَ ليلاً ، لأنهم لا يجدون مأوىً يأوون
إليه ، فوصلَ بكتابته إلى القلوب ، وحركَ فيها عواملَ الحبِّ
والرحمةِ والشفقةِ ، وأبكتْ كتاباته آفاقًا ممن لم يخبروا تلك
الحياةَ ولم يعرفوا عنها شيئًا ، ودفعَ بالنفوسِ إلى العملِ السريعِ
لإتقاذِ الإنسانيةِ الممدّيةِ مما تُمانيه من بؤسٍ وشقاءٍ . وقد وصلَ إلى
ما ينبغي من العدالةِ وحسنِ معاملةِ الفقراءِ والمرضىِ والمعجزةِ
واليتامى ، وإصلاحِ الفاسدِ ، وأداءِ الواجبِ نحو الإنسانِ . وبهذا
أدّى (دكّنز) رسالته خيرَ أداءٍ ، وجازاه اللهُ خيرَ جزاءٍ ، ووفّقَ
إلى ما لم يُوفّقَ إليه المعاصرون له من الشعراءِ والكتابِ بانجلترا .

القِصَّةُ الْأُولَى

دَاوَيْدُ كَبْرَ فَيْلِد

فِي قَرْيَةٍ (بَلَنْدِرْسْتُون) مِنْ مُقَاتِعَةِ (سَافِك) عَاشَ (دَاوَيْدُ كَبْرَ فَيْلِد) ، فِي مَنْزِلٍ صَحِيٍّ تَحْنُو^(١) عَلَيْهِ بَيْنَ جَنَابَاتِهِ وَالِدَةٍ رَعُومٍ تُحِبُّهُ كُلَّ حُبِّ ، وَقَفَّتْ عِنَايَتَهَا عَلَى رَاحَتِهِ ؛ لِتُعَوِّضَهُ فُقْدَانَ وَالِدِهِ . وَكَانَ مَعَهُمَا فِي هَذَا الْبَيْتِ خَادِمٌ رَحِيمَةٌ الْفَوَادِ طَالَمَا بَدَلَتْ الْوَدَّ لِذَلِكَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ ؛ لِتَجْعَلَ لَهُ مِنْ عَيْشِهِ سُرُورًا وَمَرَحًا^(٢) . وَكَانَ « لِدَاوَيْدَ » عَمَةٌ كَبِيرَةٌ السِّنِّ ، طَوِيلَةٌ الْقَامَةِ ، شَدِيدَةٌ الْمَعَامَلَةِ ، زَارَتْ الْأُسْرَةَ مَرَّةً أَيَّامَ وِلَادَتِهِ ، فَتَأَلَّمَتْ — عَلَى غَيْرِ الْعَادَةِ — إِذْ كَانَتْ تَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْمَوْلُودُ بِنْتًا .

مَضَتْ الْأَيَّامُ وَدَرَجَ (دَاوَيْدُ) مِنْ حَجْرِ أُمَّهِ وَبَيْنَمَا الْأُسْرَةُ الصَّغِيرَةُ فِي حَالٍ تَبَعَتْ عَلَى الرِّضَا وَالطَّمَأْنِينَةِ ، وَ(دَاوَيْدُ) قَانِعٌ بِحَيَاتِهِ الْمَنْزِلِيَّةِ ، إِذْ زَارَهَا رَجُلٌ طَوِيلٌ ، عَابَسُ الْوَجْهِ ، أَسْوَدُ الشَّعْرِ ، انْتَبَضَ صَدْرُ « دَاوَيْدَ » لِرُؤْيَيْهِ ، وَتَمَلَّكَتْهُ الْغَيْرَةُ عِنْدَمَا شَعَرَ بِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ أُمَّهِ زَوْجًا .

(١) تعطف عليه . (٢) شدة الفرح والنشاط .

لم يُطِقْ (دافيد) على ذلك صَبْرًا ، فرأتِ الخادِمُ أن تذهبَ به لزيارةِ أخيها ، وأخذتْ تُحِبُّ إليه تلكَ الرحلةَ قائلةً : « هل لك في زيارةِ لأخى في « يَرْمُوثَ » ؟ وهل لك في رؤيةِ البحرِ المائجِ ^(١) ، والجواريِ المنشآتِ فوقَ المياهِ المتلاطمةِ ؟ »
فما طرَقَ سمعُه هذا الحديثُ حتى انبسطتْ أساريرُ الغبطةِ في وجهه ، وطربَ أيما طربٍ ، ولكنه تذكَّرَ أمه ، ووحدتها الموحشة ، وما تعانِيه من ألمِ الفراقِ ، فقال بلهجةٍ تنم عن استغرابٍ شديدٍ :
« وهل تتركُ أميَّ وحدها ؟ »

فقالت له الخادِمُ : « لا ، إن والدتك سوف تذهبُ لتزورَ بعضَ الأصدقاءِ . »

فاطمأنَّ قلبُ (دافيد) ، وقضى الليلَ فرحاً يفكرُ في ملابسِ السفرِ ، ويهتفُ بطلائعِ الصبحِ . وما كادتْ تظهرُ بشائره حتى هَرَوَلَ إلى أمه يُودِّعُها ، وعاطفةُ البُنوةِ قد تأجَّجتْ في صدره ، فذرفتْ ^(٢) عيناه بالدمعِ السخينِ ؛ حينئذٍ إلى مُرَبَّاهِ ومهدِ صباهِ .
غالبَ (دافيد) تلكَ الصمابَ ثم ركبَ هو والخادِمُ في مركبةٍ ثقيلةٍ بطيئةِ السيرِ ، فما وصلَ إلى « يَرْمُوثَ » حتى كان التعبُ قد أضناه ، وأخذَ منه كلَّ ما أخذٍ ، فحمله ابنُ أخى الخادِمِ

(١) المائجُ : المضطربُ . (٢) سالت بالدمعِ .

على ظهره ، وأوصله إلى المنزل ، فارتاحت نفسه ، وسرَّ عندما
وجدَ به طفلة ناهزت^(١) سنَّه أو كادت ، اتخذَ منها صديقةً لعبٍ
ومرح ، يداعِبُها^(٢) وتُداعِبُه . ولم تَمُضِ به الأيامُ إلا قليلاً في
مُقامِه حتى علمَ أن « مستريجوتي » - وهو أخو الخادم - رجلٌ
مُحسِنٌ يُربِّي في بيته أطفالاً يتامى رَغْمَ ما يُعانيه من فقرٍ مُدقعٍ^(٣) ،
وضنكٍ^(٤) شديدٍ ؛ فهو يكُدُّ^(٥) ويتعب طولَ نهارِه ليحصلَ على
قوتٍ لهؤلاء . وثبتَ في نفسِ دَاقِدٍ أن هذا الرجلَ الكريمَ
يَسْتَحِقُّ الثَّنَاءَ ونَظْرَةَ الإِكْبَارِ .

سَعِدَ (دَاقِدُ) بتلك الرُّحلةِ الميمونةِ ، ونعمَ بجوارِ الفتاةِ
الصغيرةِ (إِملي) ، وكمْ كان جميلاً أن تفيضَ نفسُ كلِّ منهما
بالمودَّةِ والصفاءِ في ظلِّ الطفولةِ البريئةِ الناعمةِ ؛ فقد كانت
أحاديثُهما لا تتجاوزُ هذا الميدانَ الرَّحْبَ^(٦) ؛ (فداقِدُ) يَصِفُ
لها النعيمَ في بيتهِ السعيدِ ، و (إِملي) تقصُّ عليه كيفَ فقرَ^(٧)
البحرُ فاه ، وابتلعَ أباهَا ، ولم يَرَحَمْهُ مِتَمَّها ، وها هي ذِي الآنَ
في كِفالةِ عَمَّها يَكْلُوها^(٨) بعينِ رِعايتهِ ، ويَبْدُلُ كلَّ ما يملكُ

(١) ناهزت : دانت . قاربت . (٢) يداعِبُها : يمازحها . والداعبة : الممازحة .
(٣) شديد (٤) ضيق (٥) الكدُّ : الشدة في العمل وطلب الكسب
(٦) الرَّحْب : الواسع (٧) فقرَ فاه : فتحه (٨) يَكْلُوها : يحفظها

في سبيلِ هَناءِ تَها ، وكم تَمَنَّى أن تَكَبَّرَ بِسَرعَةٍ ، لَتُقَدِّمَ إلى عَمَّها
بعضَ الهدايا الجميلةِ ، والتحفِ الثمينةِ . ولا عَجَبَ ؛ فخيالُ الطفولةِ
المائلُ يُعَلِّي عليها ما تودُّ أن تَرُدَّهُ إليه جزاءَ إحسانِهِ إليها . فهي
تَنوِي أن تُهَدِيَ إليه (غَلِيونًا) فِضِيًّا ، وُحْلةً زرقاءَ اللَوْنِ مُوشاةً
بأزرَّةٍ من الماسِ وِصْدَارٍ^(١) أحمرَ ، وساعةً ذهبيةً كبيرةً ، وقُبْعَةً
سوداءَ ، وما إلى تلك من التُّحفِ الغاليةِ .

لكلِّ رَحيْلِ مَهما طالَ أَوْبَةٌ^(٢) ، ولكلِّ سَفرٍ عَودَةٌ ،
وها هو ذا (داوَيْدُ) يَشُدُّ رِحالَهُ ليرجعَ إلى أَحضانِ أمِّه ، ويمَاوِدُهُ
الشوقُ إلى أرضِ الوِطَنِ التي عليها دَرَجٌ ، وبينَ رِحالِها نَما ، يتنازَعُهُ
في عَودتِهِ أمرانُ : تَألُّهُ لتركِ (إِملي) الصَغيرةِ ، ولَهْفُهُ على رَؤيةِ
والدتهِ المَزيَرةِ .

وبعدَ لأَبي أَلقَتْ به عَصَا التَّسْيَارِ في مَزلِ أمِّه ، فوجدَ مَعالِمَ
الحياةِ قد تَغيَرتْ فيه ؛ إذ احتلَّهُ زَوجٌ والدتِهِ « مَستَرِمَرْدَسْتون »
وكانَ فِظًا غَليظَ القلبِ ، يَكُرُهُ (داوَيْدُ) الصَغيرَ كلَّ الكُرهِ ،
فلم تَألُفْه نَفسُ (داوَيْدُ) ، وشَعَرَ بأنَّ المَزلَ قد صارَ جَجرًا يَتَلَطَّى ،
ولكنَّهُ بذلَ جُهدَهُ في اكتسابِ رِضا الزَوجِ حتى لا تَضيقَ

(١) الصِّدَارُ : ثوبٌ رأسُهُ كالقِئَمَةِ وأسفلُهُ مُبَشِّي الصِّدْرِ . (٢) رجوع .

نفس أمه ، غير أن ذلك لم يُجدِ نفعا ؛ فلم يَسمح الزوجُ لزوجته أن تُدللَ ابنها (دافيد) ، ولا أن تُرفه^(١) عنه كما كانت تفعل من قبل ، ولكنه وَسَطَ هذه المتاعبِ المُمِضَةِ^(٢) كانت أمه تُعطيه درسا في القراءة والكتابة ، فوجد في الجلوس إلى الكتاب خيرَ أنيسٍ وأحسنَ مَهْرَبٍ من الحياةِ القائمةِ ، وآثرَ العزلةَ مُتَخَذًا من عُرفَةِ عُليا صغيرةٍ مَسْكَنًا له ومَأْوَى .

لم يدع (مسترمردستون) (دافيد) يَهْنَأُ بجياته الجديدة ، ويتمتعُ بطلعةِ كتبه التي سَلَّتْه وأنسَتْه ما يُخالِجُه من ألمٍ مثل كتاب (روبنسون كروزو) وكثير من القصص والرحلات ، بل ادعى أنه أهملَ بعضَ دروسه ، واتحى به مكانًا بعيدًا عن أمه ، وأخذ يُشبعُه ضربًا ، ويوسعُه لَكَمًا ؛ إجابةً لداعي قسوته ، وغِلَظِ قلبه . ولقد آلم^(٣) (دافيد) هذا النهجُ الغريبُ ؛ إذ لم يُضربْ قبلَ اليومِ ، فمَضَّ يَدَ الرجلِ دفاعًا عن نفسه ، فعدَّ الرجلُ ذلكَ جريمةً لا تُغتفرُ ، وتملكهُ النيظُّ من هذه الفِعلَةِ الشنعاءِ ، وراح يركل^(٤) (دافيد) ويلكمه^(٤) في غيرِ رحمةٍ ،

(١) ترفه عنه : تنفس عنه . والرفاهة من العيش والرفاهية والرفهية : السَّعة .

(٢) الحشنة ، القاسية . (٣) الركل : الضرب برجل واحدة . (٤) اللكم :

الضرب باليد بمجموعة .

وَتَرَكَ سَجِينًا فِي الْحَجْرَةِ مُلْتَقَى عَلَى الْأَرْضِ يَبْكِي وَيَبْصِيحُ ، وَيَشْمُرُ
شُعُورًا مُؤَلَّمًا نَحْوَ زَوْجِ أُمِّهِ الَّذِي يُبْغِضُهُ ، وَلَا يَوَدُّ أَنْ يَرَاهُ فِي
الْبَيْتِ . فَتَبَدَّلَ نَعِيمُ (دَائِدَ) شِقَاءً ، وَسُرُورُهُ حُزْنَ ، وَرَأَى مَا لَمْ
يَرَهُ مِنْ قَبْلُ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْآلَامِ .

التزم (دَائِدُ) وَحَدَّثَهُ أَيَّامًا فِي غُرْفَةٍ ضَيِّقَةٍ لَا يَرَى أَحَدًا ،
وَلَا تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنٌ ، اللَّهُمَّ إِلَّا (مِسْ مَرْدَسْتُون) - وَهِيَ أختُ
(مِسْتَر مَرْدَسْتُون) - الَّتِي حَضَرَتْ لَتَعِيشَ مَعَ أُخِيهَا ، وَكَانَتْ
أَشَدَّ مِنْهُ قَسْوَةً . مِنَ الصَّعْبِ إِرْضَاؤُهَا . تَكَرَّهُ الْأَطْفَالُ ،
وَالْأَطْفَالُ يَكْرَهُونَهَا . تَمَقَّتْ (دَائِدَ) وَ (دَائِدُ) لَا يُحِبُّهَا .

وَذَاتَ يَوْمٍ - وَالْأَسَى^(١) يَمَلَأُ جَوَانِبَ نَفْسِهِ - سَمِعَ طَرَقًا
خَفِيفًا أَنْصَتَ لَهُ ، فَإِذَا الطَّارِقُ (بِيَجُوتِي) خَادِمَتُهُ . فَهَشَّ لِلْقَائِمِ ،
وَبَشَّ فِي وَجْهِهَا ، وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ حَالِ أُمِّهِ ، وَالْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي
يَنْتَظِرُهُ ، فَعَلِمَ أَنَّهُ ذَاهِبٌ غَدًا إِلَى مَدْرَسَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ لَنْدُنْ ، وَسَوْفَ
تَوَدُّعُهُ أُمُّهُ قُبَيْلَ الرَّحِيلِ ، بَيْنَمَا « بِيَجُوتِي » الخَادِمَةُ سَتَقُومُ عَلَى
رَاحَتِهَا ، وَتَكْتُبُ لَهُ كُلَّ أُسْبُوعٍ . فَشَكَرَ لَهَا عَطْفَهَا وَعِنَايَتَهَا .

وعند الصباح أقبلت الأمُّ تودِّعُ ابنها وتشيِّعُه ، فرآها في حالٍ
تبعثُ الأثمَ والحزنَ ، صفراءَ اللونِ ، حمراءَ العينينِ . فارتَمَى في
أحضانِها ، وسألها العفوَّ عمَّا سلفَ . فأجابتهُ إلى طلبتهِ^(١) . على
الألِّ يحملُ لزوجها موجدةً^(٢) ، ونصحت له بأن يُصلحَ من شأنه ،
ويجدَّ في عمله ، ودعت له بالتوفيقِ والهدايةِ .

حزنَ (دايِدُ) أشدَّ الحزنِ؛ إذ أنَّ أمه — أقربَ الناسِ إليه —
تُسيءُ به الظنَّ ، وتعتقدُ أنه فاسدٌ شريرٌ ، مُجحفٌ بحقِّ زوجها ،
مع أنه ذكيٌّ مُؤدِّبٌ ، هادئُ الطبعِ ، رقيقُ الشعورِ . فاغرورتْ
عيناه بالدموعِ حينما تركَ المنزلَ . ولم يكُدْ يتابعُ السيرَ إلا قليلاً
حتى وقفتِ المركبةُ التي تُقله^(٣) إلى لندنَ ، تنتظرُ (بيجوتى)
وهي مُقبلةٌ تجرى وفي يديها عقدٌ من الكمكِ ، وورقةٌ ملفوفةٌ
بها بعضُ النقودِ ، وقد كتبتَ عليها بيدِ أمه : (هديةٌ إلى دايِدِ
مع حُبِّي . « فقبلها شاكرًا ، وقسمَ الكمكَ وأعطى سائقَ
المركبةِ منه نصيبًا ، وهو يُجيبُ عن سؤاله : « هل الكمكُ
من عملِ (بيجوتى) ؟ » فأجاب (دايِدُ) : « نعم . فرجاءُ أن

(١) الطَّلِبَةُ : الشيءُ المطلوبُ (٢) الموجدةُ : الغضبُ .

(٣) تُقله : تطيقُ حملةً ، تحمله .

يَبْعَثُ إِلَيْهَا رِسَالَةً بَأَنَّ (بَرْكَيْسَ) رَاضٍ . « فَاثْمَزَ الْفَتَى فِرْصَةَ
اِنْتِظَارِهِ السَّيَارَةَ الْعَامَّةَ فِي (يَرْمُوثَ) ، وَكَتَبَ إِلَيْهَا الرِّسَالَةَ الْآتِيَةَ :

« عَزِيزَتِي (يَجُوتِي)

قَدْ وَصَلْتُ إِلَى (يَرْمُوثَ) سَالِماً ، وَإِنَّ (بَرْكَيْسَ) رَاضٍ .

كُلُّ حَيٍّ لَأُمِّي . «
المخلص
داقيد

وَهُنَاكَ فِي (يَرْمُوثَ) جَلَسَ وَحِيداً إِلَى مَائِدَةٍ فِي مَطْعَمٍ ،
وَقَدْ كَانَ يُعَكِّرُ عَلَيْهِ صَفْوَةَ الْحَيَاةِ تِلْكَ الْوَحْشَةَ الْمُرْوَعَةَ^(١) ، الَّتِي
تَقَطَّعَتْ لَهَا نِيَابُ^(٢) قَلْبِهِ ، وَمَلَأَ رُوعَهُ^(٣) الْيَأْسُ الْمُبْرِّحُ . وَعَلَى
حِينَ غَفَلَةٍ فَجَاءَهُ الْخَادِمُ ، وَهُوَ مُسْتَسْلِمٌ لِتِيَارِ هَوَاجِسِهِ يُخْبِرُهُ بِأَنَّ
رَجُلًا سَقَطَ مَيْتًا إِثْرَ تَنَاوُلِهِ جَرَّةً مِنَ الشَّرَابِ ، ابْتِاعَهُ مِنَ الْفَنْدُقِ ،
فَارْتَابَ الْفَتَى وَفَزِعَ . وَكَمْ كَانَ سُرُورُ (دَاقِيدَ) عَظِيماً عِنْدَ مَا تَجَرَّعَ
الْخَادِمُ قَدْحَهُ حَتَّى لَا يُؤْذِي شَعُورَ أَصْحَابِ النَّزْلِ^(٤) .

وَبَعْدَ هَذَا الْحَادِثِ بِأَيَّامٍ وَصَلَ إِلَى لَنْدَنَ ، وَأَخَذَ إِلَى مَدْرَسَةٍ
فِي « بِلَا كِهَيْث » وَكَانَتْ مُعْطَلَةً ؛ لِأَنَّ الْإِجَازَةَ لَمْ تَنْتَهَ بَعْدُ ،

(١) الْمَرْزُوعَةُ ، الْحَيْفَةُ . (٢) عُرُوقٌ غَلِيظَةٌ نِيَطُ بِهَا الْقَلْبُ . نَاطُ : عَلَنَى .

(٣) قَلْبِهِ . (٤) النَّزْلُ وَالنَّزْلُ : مَا يَهَيِّئُ لِلنَّزِيلِ وَهُوَ الضَّيْفُ .

فأدرك أنه أرسلَ قبلَ بدءِ الدراسةِ عقاباً له . ولشدَّ ما كانَ ألمُه عندَ ما قرأَ على ظهرِ معطفِه بطاقةً كتبتَ عليها العبارةُ الآتيةُ بخطِّ واضحٍ : « احترسوا منه فإنه يَمُض . » ولكن الله سَلَّمَ ؛ إذ لم يرَ كثيرٌ من التلاميذِ هذه الكتابةَ ، ومن رآها حَسِبها مزاحاً . وليسَ بعجيبٍ أن تكونَ محوراً تدورُ عليه فُكاهتهم وأسلوبُ دُعابَتهم ، حتى تميَّزَ^(١) (دافيدُ) من الغيظِ ، ووَدَّ لو يجانبهم ، وليسَ له من دونِ ذلك بُدٌّ ، حتى قيَّضَ اللهُ له تلميذاً أنكرَ فعالهم ، وذمَّ خلقهم ، واتخذَ منه أخاً له معواناً ، وصديقاً وفيّاً .

مرت الأيامُ ، و (دافيدُ) يجتهدُ في دروسه حتى ظهرَ ذكاؤه ، فازدادتُ محبةُ إخوانه له ، والتفؤوا حوله ، يُروى ظمأهم ، ويُشبعُ رَغبتهم من الميلِ إلى استماعِ القصصِ والحكاياتِ .

وذاتَ يومٍ عادَه (مستريجوتى وهام) يَحملانَ له هديةً من السمكِ اللذيذِ ، فقدمَ إليهما مُفتخراً صديقهَ الجديدَ (مسترفورث) وهو يُبني عليه ، ويُطريه^(٢) أيما إطراءٍ ، والصديقُ يُرْحبُ بهما . وأخيراً أتتِ العُطلةُ ، وأعدَّ (دافيدُ) العُدَّةَ للرحيلِ ، ورجعَ إلى بيتِه ، فقابلَه السائقُ (بَرَ كيسُ) واجماً^(٣) ، ولم يُخفِ عليه

(١) تميز من الغيظ : تقطع (٢) أطراه : مدحه . (٣) الواجم : الذى اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام .

وجومته ، وفِطْنَ لأمره ، فوعده أن يعملَ عَلَى تَهْدِئَةِ خَاطِرِهِ ، وإِرَاحَةٍ ضَمِيرِهِ . وقد كان سرورُ أمِّه وخادمِهِ (بيجوتى) عظيماً بِلِقَائِهِ ، فَقَضَى يَوْمًا هَنِيئًا يُدَاعِبُ فِيهِ (دايِدُ) أخاه المولودَ الصغِيرَ ، وَيُدُلُّهُ ، وَيُظهِرُ لَهُ حُبَّهُ وَعَظْفَهُ ، فِي وَقْتِ غَابِ فِيهِ عَنِ الأُسْرَةِ (مستَرِ مَرْدَسْتُون) وَأَخْتُهُ . ولكنهما عند ما عادا سَرَعَانَ ما بدا البغضُ عَلَى مُحِيَّاهُمَا^(١) ، ووبَّخَاهُ عَلَى مُعَامَلَتِهِ ، وَمَنَعَا مِنْهُ أَخَاهُ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجُلُوسَ مَعَ (بيجوتى) . فحَنَقَ^(٢) فِي نَفْسِهِ ، وَكَطَمَ غَيْظَهُ حَتَّى انْقَضَتِ الإِجَازَةُ ، فودَّعَ أَهْلَ البَيْتِ ، وَقَبَّلَتْهُ أُمُّهُ قُبَلَاتٍ كَثُفًا عَظْفٌ وَحَنَانٌ ، وَقَدَّمَتْ إِليهِ أَخَاهُ الصغِيرَ لِيَرَاهُ حِينَمَا أَخَذَ يَرْكَبُ المَرْكَبَةَ لِلعُودَةِ إِلى المَدْرَسَةِ .

وبعدَ شَهرينَ من عَودَتِهِ أرسَلَتْ إِليهِ إِحدى صَدِيقَاتِ أُمِّهِ تَخْبِرُهُ بِمَوْتِهَا ، فَحَزِنَ حَزْنًا شَدِيدًا ، وَتَأَلَّمَ إِخْوَانُهُ كُلَّ الأَلَمِ ، وَرَجَعَ إِلى بَيْتِهِ فِي اليَومِ التَّالِي ، فَعَلِمَ وَفَاةَ أَخِيهِ الصغِيرِ ، فَكانَ حَزْنُهُ أَشَدَّ وَأَوَقِعَ . قابَلَتْهُ (بيجوتى) وَهِيَ تَخَفُّفٌ عَنهُ لَوَعَةِ الأَسَى^(٣) ، وَحَدَّثَتْهُ عَنِ مَرَضِ أُمِّهِ ، وَرَسَّالَتِها الرَقيقَةَ إِليهِ ، وَهِيَ عَلَى فِرَاشِ

(١) وَجَهْمَا (٢) كَحَنِيقٍ : اغْتَاظٌ ، وَالْحَنِيقُ : الغَيْظُ . (٣) الأَسَى : الحَزَنُ .

الموتِ محتضراً^(١)، ودَعَوَاتِهَا الصَّالِحَاتِ الْمُبَارَكَةِ بِأَنْ يَحْفَظَهُ اللهُ
وَيَحْرُسَهُ بِعِنَايَتِهِ، وَيَكْتُبَ لَهُ النِّجَاحَ وَالتَّوْفِيقَ .

هكذا قَدَّرَ (لدائيدَ) أَنْ يَفْقِدَ أُمَّهُ وَهُوَ غَلامٌ، وَأَنْ تُحْرِمَ نَفْسُهُ
رُوحَ الْإِشْفَاقِ وَالْحَنُوءِ عَلَيْهِ؛ فَقَدَ تَجَاهَلَهُ زَوْجُ أُمَّهُ كُلُّ التَّجَاهِلِ،
وَأَنْكَرَتْهُ (مِسَ مَرِدِسْتُون) وَزَادَتْ كَرَاهِيَتُهَا لَهُ . وَغَادَرَتْ
(بِجُوتِي) الْمَنْزَلَ وَهِيَ تَصْحَبُهُ لزيارةِ قَاصِرَةٍ لِأَخِيهَا . وَفِي الطَّرِيقِ
عَلِمَ مِنْهَا رَغْبَةً (بِرَكِيسَ) فِي تَزْوِجِهَا، وَرِضَاءَهَا عَنْ هَذَا
الْقِرَانِ السَّعِيدِ . وَقَدْ فَرِحَ كُلُّ مَنْ فِي بَيْتِ (مِستَرِ بِيجُوتِي) بِرُؤْيَا
(دَائِيدِ)، وَعَمِلُوا جُهْدَ الطَّاقَةِ عَلَى رَاحَتِهِ وَالتَّرْفِيهِ عَنْهُ، حَتَّى (إِمْلِي)
الصَّغِيرَةَ؛ فَقَدَ عَمَّرَتْهُ بِعَطْفِهَا، وَجَلَسَ إِلَيْهَا يُحَدِّثُهَا عَنْ فَقْدِ أُمَّهُ،
وَهِى تَذَرِفُ^(٢) قَطْرَاتِ الدَّمْعِ مِنْ مَآقِبِهَا أَسْوَأَ الْجِرَاحِ، وَتَعزِيَةٌ
لِفُؤَادِهِ الْمَكْلُومِ^(٣) . وَكَمْ وَدَّ لَوْ يَكُونُ (مِستَرِ بِيجُوتِي) وَصِيًّا عَلَيْهِ؛
حَتَّى لَا يَشْعُرَ يَتِيمًا، وَلَا يُحْسِنُ آلامَ الْحَيَاةِ .

شَاءَ الْقَدَرُ وَأَرَادَتْ الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ يَتِمَّ زَوَاجُ «بِرَكِيسَ»
الْحَوْذِيِّ وَ«بِجُوتِي»، فَقَضَى «دَائِيدُ» اللَّيْلَةَ الْأَخِيرَةَ مِنْ زيارَتِهِ

(١) احتضر بالضم : حضره الموت

(٢) ذرفت العين : سال دمعها . (٣) المجرع

بمنزلها ، مُرَحَّبَةً بِمَحْضُورِهِ ، مُزَوَّدَةً إِيَّاهُ بِنِصَائِحِهَا ، وَأَنَّهَا سَوْفَ تُتَفَكَّرُ فِيهِ إِلَى الْأَبَدِ ، إِنْ قَرَّبَ وَإِنْ بَعُدَ ، وَأَنَّ مَنَزَلَهَا سَيَكُونُ مُعَدًّا لِلْقَائِهِ ، فِي كُلِّ لِحْظَةٍ ، فِي صِغَرِهِ وَفِي كِبَرِهِ . فَشَكَرَ لَهَا حُسْنَ إِخْلَاصِهَا ، وَجَمِيلَ رِعَايَتِهَا ، وَشَعَرَ بِمَا تُضْمِرُهُ لَهُ مِنْ حُبِّ وَإِخْلَاصٍ . ثُمَّ عَادَ إِلَى دَارِهِ بَعْدَ أَنْ وَدَّعْتَهُ ، وَدَلَّائِلُ الْحُبِّ الصَّادِقِ ، وَالْوَفَاءِ الْحَقِّ ، تَرَسَّمُ عَلَى مُحْيَاهُ .

شعر « دَائِدُ » الْمَسْكِينُ بِالْمِ الْوَحْدَةِ وَالْعَزَلَةِ بَعْدَ مَوْتِ أُمَّهُ وَفِرَاقِ خَادِمِهِ . وَلَمْ يَجِدْ قَلْبًا يَجْوَازُهُ يُذْهِبُ عَنْهُ مَا أَلَمَّ بِهِ مِنْ أَتْرَاجٍ . وَلَمْ يَجِدْ مِنْ مُزْجِيٍّ إِلَيْهِ كَلِمَةَ عَطْفٍ ، أَوْ يُلْقِي إِلَيْهِ نَظْرَةَ حُبِّ . لَمْ يَجِدْ سِوَى شَخْصَيْنِ قَضَا عَلَى حَيَاةِ أُمَّهُ ، هُمَا زَوْجُهَا وَأَخْتُ زَوْجِهَا .

عاش « دَائِدُ » تلكَ الفَترَةَ^(١) مِنْ حَيَاتِهِ مَعِيشَةً كُلَّهَا بَوْسُ شِقَاؤِهِ ، وَاسْتَسَلِمَ لِهَوَاجِسِهِ الْقَاتِلَةِ ، حَزِينًا كَسِيرَ الْخَاطِرِ ، وَبِخَاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ أَنَّهُ لَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، رَغْمَ مِيلِهِ الْكَثِيرِ إِلَى الْإِعْتِرَافِ مِنْ مَنَهْلِ الْعِلْمِ ، وَحُبِّ التَّعَلُّمِ . وَلَمْ يَجِدْ سَلْوَى تُبَعِّدُهُ

(١) الفَترَةُ : المَدَّةُ .

عن همة إلا زيارة « يجوتى » الفينة^(١) بعد الفينة . وبينما هو على هذه الحال يتجرع كئوس الهم المترعة^(٢) ، ولا يجد من يُعنى بشئونه ، ولا من يهتم بأموره ، أخبره زوج أمه « مستر مردستون » بذهابه إلى لندن في النقد للعمل في شركة « مردستون » واكتساب معاشه . وما كادت تطلع عليه شمس النهار حتى كان بجانب المدير ليتسلم العمل ، ويقاتل العالم ، والعالم يُقاتله .

اقتحم « دافيد » ميدان الحياة العملية ، وهو لم يتجاوزَ عشرَ سنين ، وبرزَ بين أعمال أسدلت عليهم الأمية ستارَ الجهل ، يعمل في أحط الأعمال وأخسها ؛ يفسل الزجاجات ، ويلصق الإعلانات ، فتحركت في نفسه صفحة الماضي . وتذكر ما كان يؤمله من مستقبل زاهر ، وحياة رغد^(٣) بين إخوانه في المدرسة ، وخيلته في قرية . ولا عجب إذا بكى غابره بدموع حارة ، فإنما يبكي عيشاً قوَّضت^(٤) دعائمه كوارثُ الدهر ، يبكي آماله في أن يكون رجلاً مثقفاً عظيماً ، يبكي خوفاً من أن ينسى كل ما تعلمه في المدرسة ، يبكي لأنه لم يستطع أن يتم تعليمه بالمدرسة بعد أن

(١) الفينة بعد الفينة : الحين بعد الحين . (٢) المترعة : المملوءة .

(٣) يقال : عيشة رغد ورغد أى واسعة طيبة . (٤) قوَّضت

قَدَفَتْ به السَّنُونِ إِلَى ذَلِكِ الْمَعْمَلِ لِيَكْسِبَ عَيْشَهُ وَهُوَ طِفْلٌ ،
وَإِلَى أُسْرَةِ « مِيكُوَيْرَ » وَقَدْ أَثْقَلَتْهَا الدِّيُونُ ، وَلَا تَعْرِفُ مَعْنَى
التَّرِييَةِ ، مَعَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ طَيْبِ الْقَلْبِ ، وَحُسْنِ الْمَعَامَلَةِ ،
فَلَمْ يَجِدْ بَدَأً مِنْ مَسَاعِدَتِهَا ، وَمَدَّ يَدَ الْمَعُونَةِ إِلَيْهَا . وَكَيْفَ تُجِدِي
مَسَاعِدَتَهُ ، وَهُوَ لَمْ يَزَلْ صَغِيرًا ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِمَا يَكْفِي
نَفَقَاتِهِ ؟ وَلَوْلَا مَا كَلَّأْتَهُ ^(١) بِهِ الْقُدْرَةُ مِنْ عِنَايَةٍ ، وَوَهَبَتْ لَهُ مِنْ
طَهَارَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ لِسَارِمْ الشَّارِدِينَ ، وَأَصْبَحَ بَيْنَ الْمَجْرِمِينَ ، يَهِيمُ
عَلَى وَجْهِهِ فِي الطَّرْفَاتِ يَفْتَرِشُ الْأَرْضَ ، وَيَلْتَحِفُ ^(٢) بِالسَّمَاءِ ،
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَفِظَ ذَلِكَ الْيَتِيمَ مِنَ الشَّرُورِ وَالْآثَامِ .

لَمْ تَكْتَفِ الْأَيَّامُ بِمَا حَلَّ بِدَائِدَ مِنْ بُوْسٍ وَشَقَاءٍ ، بَلْ أَخَذَتْ
تَكْيِيلُهُ لَهَا صِنُوفَ الْإِيْلَامِ ؛ فَإِنَّ أُسْرَةَ « مِيكُوَيْرَ » ^(٣) الَّتِي أَلْفَ
صَدَاقَتِهَا ، وَمَالَ إِلَى الْعَيْشِ مَعَهَا انْتَابَتْهَا النُّكْبَاتُ سِرَاعًا ، فَشَدَّتْ
الرَّحَالَ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ ، فَوَدَّعَهَا بَعْدَ أَنْ أَهْدَى إِلَى صَغَارِهَا هَدَايَا
مِنَ اللَّعْبِ الَّتِي اشْتَرَاهَا بِمَا اقْتَصَدَهُ مِنْ قُوْتِهِ .

(١) كَلَّأَهُ اللَّهُ يَكْلُوهُ كَلَاءَةً : حَفِظَهُ . (٢) يَلْتَحِفُ : يَتَغَطَّى .

(٣) أَخَذَ دَكْنُ اسْمِ مِيكُوَيْرَ رَمْزًا خَيَالِيًا لِأُسْرَتِهِ ، فَهُوَ حِينَمَا يَتَكَلَّمُ عَنْ مِيكُوَيْرَ

يَتَكَلَّمُ عَنْ أَبِيهِ (جَنَّ دَكْنُ) . وَحِينَمَا يَتَكَلَّمُ عَنْ (مَسْرُ مِيكُوَيْرَ) يَتَكَلَّمُ عَنْ وَالِدَتِهِ .

بلغ به اليأسُ أشدّه، وكرهَ العملَ في تلكِ الشركةِ، واضطُرَّ
للبحثِ عن مَسْكَنٍ مع عُرباءِ، ولكن كيفَ يَلدُّ له عيشٌ في
بُورهم؟ فوجدَ أن الحاجةَ ماسةٌ لمكاتبةِ «بيجوتى» يسألها عن
مَسْكَنِ عَمَتِهِ «مِسْ بِنْسِي تَرَ تُوودُ» التى حَدَّثَتْهُ أمُّه عنها
كثيرًا، وودَّتْ لو يزورها لشدةِ حَدَبِهَا^(١) عليه، ورحمتها به؛
فَرَارًا من تلكِ الحَيَاةِ التَّعَسَةِ.

فأجابته (بيجوتى) إلى طلبه، وأخبرته بأنها فى (دُوثر)، وزوَدَتْه
ببعضِ ما يحتاجُ إليه من تقوِدٍ فى سفره. ولما انقضتْ أيامُ الأسبوعِ،
وَوَتَّى ما عليه من دينٍ للشركةِ، أزمَع^(٢) على الرحيلِ، ومُغَادِرَةِ تلكِ
الديارِ، فبَحَثَ عن حَمَالٍ يَحْمِلُ عنه صندوقه، فعثر على شابٍّ، ولسوءِ
الحظِّ كان لَصًا سَلَبَهُ كلَّ ما يَحْمِلُ حتى تقوَدَه اليسيرةُ، وتركه
صِفْرَ اليدينِ حائرًا لا يَلْوِي على شىءٍ. وبعد لَأْيٍ لم يُجِدْهُ نفعًا عَزَمَ
على السفرِ ماشيًا، فتابعَ السيرَ، ولكن الجوعَ أَنهَكَ قُوَاهُ، فلم
يَجِدْ وسيلةً تنقذه من مخالبِ الموتِ سِوَى أن يبيعَ مَلابِسَه الزائدةَ

(١) عطفها عليه (٢) أزمع على الرحيل: نبئت عليه عزمه. هذا ما قاله الخليل.
وقال الكسائى: يقال: أزمع الأمر ولا يقال أزمع عليه. وقال الفراء: يقال: أزمع
الأمر وأزمع عليه كما يقال أجمع الأمر وأجمع عليه.

ليشتريَ بئمنها ما يحتاجُ إليه من الخبزِ الضروريِّ في أثناءِ سفره حتى لا ينفدَ دونَ أن يصلَ .

وبعدَ ستةِ أيامٍ على هذه الحالِ ، وصلَ إلى (دُوَقَرَ) مُمزَّقَ الثيابِ ، مُغَبَّرَ المنظرِ ، بينَ الحياةِ والموتِ . وفي أوَّلِ الأمرِ لم يُوفِّقْ إلى مَعْرِفَةِ مَسْكَنِ عمتهِ . وبينما هو في الطريقِ يَبْحَثُ إذ اعترضتهُ مَرَكَبَةٌ سَقَطَ منها غِطاءُ الحصانِ ، فناوله للسائقِ ، ثم سأله عن بيتِ (مِس تَر تُوود) عمتهِ ، فأرشدهُ إليه .

سارَ (داويدُ) وطريقه إلى المنزلِ فتلاقى مع خادمِ (مِس تَر تُوود) ، فهدتهُ إليه ، ثم تركته واقفاً بالبابِ تصطكُ أسنانهُ من هولِ البردِ ، وهو يتطلَّعُ إلى النوافذِ علَّه يُرى شبحَ عمتهِ ، فوقعَ بصرُه على رجلٍ تلوحُ عليه سِيما^(١) الوقارِ . ولكن فكره لم يَقِفْ عند هذا الحدِّ ، بل سَبَحَ في مِيدانِ البَحْثِ عما يَفْعَلُ . وعلى حينِ غفلةٍ رأى سيدةً مُسِنَّةً مُمتدِّلةً القامةِ ، تلبسُ مِبدَعةً ، وفي يَدِها سِكِّينٌ لقطعِ الحشائشِ من الحديقةِ . وما وقعَ بصرُها عليه حتى أمرته بأن يفارقَ المكانَ .

تَحَطَّمَ قَلْبُ « دَائِدَ » الْمَسْكِينِ ، وَمَلَكَ الْيَأْسُ فَوَادَهُ الْمَكْلُومَ
فَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا - وَأَنَامِلَهُ تَرْتَعِشُ^(١) ، وَفَرَائِصُهُ^(٢) تَرْتَمِدُ - يَقُولُ :
« عَمْتِي ، رَفِيقًا بِي ». فَمَعَجِبَتِ أَيَّمَا عَجَبٍ ، وَحَدَّثَتْ^(٣) إِلَيْهِ تَحْدِيقًا
تَسْتَمَعُ لِحَدِيثِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

« أَنَا دَائِدُ كَبْرٍ فَيَلِدُ » مِنْ بَلَدَةِ « بَلَنْدَرَسْتُونِ » حَيْثُ
أَتَيْتِ وَأَنَا طِفْلٌ ، وَرَأَيْتِ أُمَّيَ الْعَزِيزَةَ ، وَقَدْ عِشْتُ مَعِيشَةً
كُلُّهَا شَقَاؤًا مُنْذُ أَنْ اخْتَارَهَا اللَّهُ لِحِوَارِهِ ، وَأَهْمَلْتُ كُلَّ الْإِهْمَالِ ،
وَحُرَمْتُ التَّعْلِيمَ ، وَقُطِعْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، وَطُرِدْتُ مِنَ الْمَنْزِلِ ؛
لَا كَسِبَ عَيْشِي وَأَنَا طِفْلٌ . وَوُضِعْتُ فِي شَرِكَةِ لِأَعْمَلِ عَمَلًا
لَا أَصْلَحُ لَهُ ، وَلَا يَصْلُحُ لِي . وَقَدْ اضْطُرَرْتُ أَخِيرًا إِلَى الْهَرَبِ مِنْ
تِلْكَ الْبَيْتَةِ ، وَالِاتِّجَاءِ إِلَيْكَ . وَسَرَقَ أَحَدُ اللَّصُوصِ تَقْوَدِي
فِي مَبْدَأِ سَفَرِي ، فَأَتَيْتُ إِلَيْكَ مَاشِيًا ، وَاسْتَفْرَقَ سَفَرِي سِتَّةَ
أَيَّامٍ ، لَقَيْتُ فِيهَا مَا لَقَيْتُ مِنْ مَتَاعِبَ وَآلِيمٍ . وَلَمْ أَنْمَ فِي سَرِيرٍ
مُنْذُ بَدَأْتُ تِلْكَ الرَّحْلَةَ الشَّقَاةَ . وَأَخْبَرَهَا بِأَنَّهُ لَمْ يَلْجَأْ إِلَيْهَا إِلَّا
لِتُزِيلَ عَنْهُ مَا غَشِيَهُ مِنْ غَمٍّ وَهَمٍّ ، ثُمَّ اسْتَرْسَلَ فِي بُكَائِهِ بَعْدَ أَنْ

(١) ارتعش وارتعد : اضطرب . (٢) الفرائص : جمع فريضة وهي لحمية بين
الجنب والكتف لاتزال ترتعد من الدابة . (٣) التحديق : شدة النظر

أتم حديثه . فأشفقت عليه ، وقادته إلى المنزل ، وأصمتتفظ به
 حرارة الدم بما أعطته إياه من شرابٍ ودواء ، وطلبت مر
 السيد « دك » — الذي رآه « دافيد » مُطلاً من النافذة — النزول ،
 ثم أخبرته بأمر هذا الغلام ، مُستفسرة عما تفعل ، فنصح لها
 بإعطائه حماماً ساخناً ، وتغيير ملبسه القَدرة . فلاقَت هذه الفكرة
 منها قبولاً . وفي الحالِ كان « دافيد » يرقل^(١) في ثيابٍ غالية ،
 وينامُ على فراشٍ وثير^(٢) ، وعمته تُرتبُ له شعره وتقول :
 « ما أجلك أيها الفتى المسكين . »

وبعد تناولِ الغداءِ ووسطَ هدوءٍ شاملٍ تلحظه عينُ العنايةِ
 الساهرة ، جلسَ « دافيد » إلى عمته والسيد « دك » يقصُّ عليهما
 قصته من جديد ، والأسفُ ملءُ جنبه . وما كادَ يفرغُ من حديثه
 حتى نصحَ السيد « دك » بأن يذهبَ الفتى إلى الفراشِ ليسترخِ
 من وعناء^(٣) السفر ، فنامَ في تلكَ الليلةِ نوماً عميقاً هادئاً ، حامداً
 اللهَ على نعمائه الجزيلة ، داعياً بقلبه ألا يحكمَ اللهُ عليه بالطردِ
 والشقاء ، وأن يقيه ذلَّ السؤالِ ، والوحدةِ والبؤسِ ، وأن يرحمَ
 أولئك الأطفالَ الذين لا ملجأَ لهم ولا نصيرَ .

(١) رقل في نياه : أطلما وجرها متبخيراً (٢) مهد ، مرج (٣) وعناء : مشقة
 (٣)

وفي الصباح التالي أخبرته عمته بأنها بعثت^(١) إلى السيد « مردستون » كتاباً ، ففرع الفتى لسماع هذا النبأ ، وحاز في أمره ، كيف يفعل إذا أجبرته على العودة معه ، وهو لا يريد أن تجتمعهما الأيام ثانية بعد فراقهما . فاختلف عليه الحال ، ولم يفهم السر من إرسال هذا الكتاب ، وبقى في حيرة دبّت فيها خواطرُ السوء في نفسه حتى وصل زوج أمه ومعه أخته . وقد اغتاظت العمّة حينما رأت الأنسة « مردستون » ممتطيةً حماراً يسيرُ على حشائش الحديقة ، فطرَدت الحمارَ وسائقه ، ثم استقبلت الزائرَين بعد أن أجلسَت « داويد » على مقعدٍ بالقرب منها . ولما استقرَّ بهم المجلسُ تحدّث السيد « مردستون » إلى عمّة « داويد » عن أخلاقه ، ومحاولة إصلاحه ، وإقامة ما اعوجَّج من سلوكه وهربه من العمل ، وأنه الآن آتٍ لأخذه ، فإن آبت فلن يطرق له باباً بعد اليوم .

حينئذٍ لم يسع العمّة الروم إلا أن تسأل « داويد » قائلة :
« أنت مُستعدٌّ للذهاب يا داويد ؟ » فتوسّل^(٢) إليها الفتى ألا تُجيب رغبة هذا الرجل وأخته ؛ فإنهما لم يُجباها ، ولم يمطفا عليه ، وجعلا أمه ترسّف^(٣) في قيود الدُّلِّ والاستعباد ، فعاثت شقيّة

(١) بعثت : أرسلت (٢) تضرّع وتقرّب (٣) رسّف : مشى مفاً المقيد

تَمَسَّةٌ^(١)، محرومةً ابْنَهَا، مُبْعَدَةٌ عَنْهُ، وَرَجَاهَا أَنْ تَحْتَفِظَ بِهِ
إِبْقَاءً لِذِكْرِي أَبِيهِ الرَّاحِلِ .

فتردَّت العَمَّةُ بُرْهَةً استعانتَ في خِلَالِهَا بِالسَّيِّدِ « دِكْ » .
الصَّائِبِ الرَّأْيِ، الحَاضِرِ البَدِيهِةِ، فَنصَحَ لَهَا بِأَنْ تَذْهَبَ
وَتَشْتَرِيَ لَهُ مَا يَحْتَاجُ مِنْ مَلَابِسَ، وَتُبْقِيَهُ مَعَهَا . فَشَكَرَتْ لَهُ
حُسْنَ تَدْيِيرِهِ، وَخَالصَ نُصْحِهِ، ثُمَّ رَفَضَتْ إِعْطَاءَ الغَلامِ لزوجِ
أُمِّهِ؛ ذَاكِرَةً أَنهَا سَتَحَاوُلُ إِصْلَاحَهُ مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .
وَمَا أَشَدَّ سُرُورَ « دَائِيْدَ » حِينَ سَمِعَ النُّطْقَ بِهَذَا الحُكْمِ العَادِلِ؛
فَقَدْ تَهَلَّاتُ أُسَارِيرُ^(٢) وَجِهَهُ بِشْرًا^(٣)، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ جَدًّا^(٤)،
وَطَارَ فَوَادُهُ فَرَحًا، وَأَقْبَلَ عَلَى عَمَّتِهِ مَاذَا ذِرَاعِيهِ حَوْلَ رَقَبَتِهَا
يُشْبِعُهَا لَمَّا وَتَقْبِيلًا، مُرَدِّدًا عِبَارَاتِ الشُّكْرِ، وَجَزِيلَ الثَّنَاءِ .
وَمِنْ ذَلِكَ الحَيْنِ بَدَأَ « دَائِيْدُ » حَيَاةً جَدِيدَةً، شَعَرَ فِيهَا
بِعَظْفٍ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ مِنْ قَبْلُ، وَرَفَلَ فِي ثِيَابِ العِزِّ وَالفَخْرِ، يَحْمِلُ
اسْمَ عَمَّتِهِ « تَرْتُوود كَبْرَ فَيْلِدَ »، وَانْقَشَعَتْ عَنْهُ سَحَابَةُ الظَّلامِ
الدَّاكِنِ^(٥)، وَزَالَتْ تِلْكَ الغَيُومُ الدَّاجِنَةُ^(٦)، الَّتِي كَانَتْ تُنْدِرُ بِالوَيْلِ

(١) التمسى : الهلاك (٢) أسارير الوجه : خطوطه

(٣) البشور : السرور . (٤) الجدال : الفرح .

(٥) الداكنة : لون يضرب إلى السواد . (٦) التلبدة : الكثيفة .

وسوء المصير . وفارق حياة النفس والإجرام ، وعاش رافها^(١) ،
ناعم البال ، يَغْتَرِفُ العِلْمَ في أحسنِ المعاهدِ في حياطةِ عمته التي
مَحَضَّتْهُ^(٢) نُصَحَهَا بقولها : « تَرْتُ كَثْرَ فَيْلِدٍ » ، ثِقْ بِنَفْسِكَ ،
وَجِدْ في دُرُوسِكَ . وَأَجِبْ لِأَخِيكَ ما تَجِبُ لِنَفْسِكَ . ولا تَوَخَّرْ
عملَ اليومِ إلى الغدِ . ولا تَقِفْ مَوْقِفًا مُنْجِلًا . وإياكَ والدناءةَ
والقسوةَ والكذبَ . تجنَّبْ هذه الرذائلَ الثلاثَ . وسأضعُ
كلَّ آمالي فيكَ . وأرجو أن تكونَ عند حُسنِ ظني بك .

ولم يَكْذِبْ يَسْمَعُ هذه النصيحةَ الغاليةَ حتى بذَلَ ما في وسعِهِ
لتحقيقِ امْنِيَّتِها ، والوصولِ إلى رَغْبِها الصادقةَ ، فصارَ رَجُلًا
عظيمًا ، وكاتبًا قديرًا ، وأديبًا كبيرًا ، ومُمَثِّلًا ماهرًا ، وخطيبًا
مفوهًا ، ومُصَلِحًا اجتماعيًا ، يُدافعُ عن الفقراءِ ، وينصُرُ المظلومينَ .
تعرَّفَ إلى أصدقائه القدماءِ ، واتخذَ بَطانَةً من أخلصِ الأوفياءِ ،
ولا عَجَبَ ؛ فتلك طبيعةُ الزمانِ ، ما كَثَرَ عن نابٍ إلا ابتسمَ ثغرُهُ
عن نجاحِ باهرٍ ، وتوفيقٍ كثيرٍ . فالسعادةُ يجبُ أن تُشترى ،
ولا بُدَّ لها من ثمنٍ . ولا ثمنَ لها إلا تحمُّلُ المتاعبِ والآلامِ .

(١) بنعمًا سعيدًا . (٢) أخلصت له .

القِصَّةُ الثَّانِيَّةُ

كناسُ هُولْبُورْنِ

(جُو) شابٌّ في الثلاثينَ من عُمره، مديدُ القامةِ، هزيلُ
البدنِ، طويلُ العُنُقِ، دميمٌ^(١) الخَلْقَةُ، ضيقُ الجبهةِ، ضاقت
سُبُلُ الارزاقِ في وجهه، فلم يجد حِرْفَةً يكتسبُ منها قُوتهُ غيرَ
الكنسِ في حيِّ « هُولْبُورْنِ بلندنَ » .

كان يخرجُ من منزله مُبَكَّرًا . وقد حملَ على كَتِفِهِ مِكنَسَةً ،
ومِكتَلًا^(٢) ، ومرأً^(٣) يُزِيلُ به الثلوجَ والأوحالَ المتراكمةَ على
سَطْحِ الأرضِ . كان لا ينفكُ يَعْمَلُ صَيْفًا وشتاءً ، لا يَتْنِيهِ عن ذلك
شدةُ القُرَّةِ^(٤) ، ولا انهمارُ المطرِ ، ولا تساقطُ الصقيعِ . حياةُ مرَّةً
قاسيةً تلك التي كان يَحْيَاهَا « جُو » ؛ فهو على الدوامِ ردىءُ
البِزَّةِ^(٥) ، قَدِرُ الملابسِ ، خاويُ البطنِ ، يسمعُ مرَّ الشتاءِ من
الناسِ جميعاً على السواءِ ، إن قَدَّمَ له بعضُ الأغنياءِ شيئاً من
فَضَلَاتِ موائِدِهِم التَّهَمَةَ في شِراهِةِ ونَهَمٍ ، شاكراً لهم فضلهم

(١) فييح (٢) شبه الزنبيل (المظف) (٣) المرء : لوح من
الحديد يعرف « بالكريك » (٤) شدة البرد (٥) الهَيْئَةُ

وإحسانهم من غير أن يعرفَ أن ذلك أقلُّ ما يجبُ عليهم نحوه .
لقد ألفتَ نفسه الضَّعة^(١) ، واعتادتْ عدمَ الاكترانِ لما يناله
من ذُلِّ وتحقيرٍ .

نشأ فقيراً مُعديماً ، لا يعرفُ له أباً ولا أمّاً ، هو ابنُ السبيلِ ،
نشأ فيه وترَبَّى بين شوارِعِهِ وحرارَتِهِ . وجدَ الناسَ يُنادونه باسمِ
« جُو » ، وهو لا يعرفُ اسمَ ذلكِ الوالدِ الذي أرسله ليشقِّ في
هذه الحياةِ ، ولا اسمَ الأسرةِ التي ينتمى^(٢) إليها .

لم يذهبْ إلى المدرسةِ ، ولم يتعلمِ القراءةَ والكتابةَ . ولم يستطعْ
تهجئةَ اسمِهِ ، ولكنه كان يعرفُ شيئاً واحداً هو : « الصدقُ
فضيلةٌ ، والكذبُ رذيلةٌ » . ولذا كان يقولُ الحقَّ دائماً ، ويتمسكُ
بالحقِّ ، ولا يعرفُ إلا الحقَّ . وكان مع هذا يعرفُ شيئاً آخرَ
هو الجوعُ ؛ فقد جاع كثيراً ، وقاسى آلامَ الجوعِ ، وعرفَ معنى
الجوعِ وأعراضه ودوائه .

• كان « جو » يسكنُ في حَيِّ « تُمُّ أولُ الوز » وهي ناحيةٌ
قدرةٌ تتراكمُ فيها الفضلاتُ التي تنبعثُ منها الروائحُ الكريهةُ .

وشوارعها ضيقةٌ مُتَعَرِّجَةٌ يُكثِرُ فِيهَا الطينُ وَالوَحْلُ . منازلها قديمةٌ مُتَدَاعِيَةٌ ، لا مَنَفَذَ فِيهَا لضيءِ ، ولا مَسْرَى لهواء .

قد يَبْلُغُ عَدَدُ سُكَّانِ الحِجْرَةِ الواحدةِ عَشْرَةَ يَنَامُونَ جُنْبًا إِلَى جُنْبٍ بِأَجْرٍ تَافِهِ يَدْفَعُونَهُ آخِرَ كُلِّ أُسْبُوعٍ . وكان لا يَسْكُنُ فِي ذلكِ الحَيِّ إِلَّا أَفْقَرُ الطَبَقَاتِ مِنْ فُقَرَاءِ لَنْدَنَ ، تُغَطِّي أَجْسَامَهُمْ أَسْمَالٌ تَصِفُ الشَّقَاءَ . مَلَابِسُهُمْ لا تَقِيهِمْ نَافِخَ (١) البَرْدِ ، ولا وَايِلَ (٢) المَطَرِ . لم يَكُنْ « چو » مَجْهُولًا لَدَى سُكَّانِ ذلكِ الحَيِّ ؛ فَمَا مِنْ رَجُلٍ أَوْ سَيِّدَةٍ أَوْ طِفْلِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ « چو » لم يُقَدِّمَ لِي خِدْمَةً ، أَوْ إِنَّهُ لم يَقُمْ لِي بِعَمَلٍ مِنَ الأَعْمَالِ . وقد اعتادَ أَهْلُ ذلكِ الحَيِّ أَنْ يُلَقَّبُوا كُلُّ سَاكِنٍ فِيهِ بِلقَبٍ يُنَادِي بِهِ ، ولا يَمُتُ (٣) إِلَى اسْمِهِ بِصِلَةٍ ، فَإِذَا سَأَلْتِ عَنْ « چو » مِثْلًا قِيلَ لَكَ : أَتَقْصِدُ « كَارُوتَز » أم « الكُولُونِيل » أم « الجَالُوز » أم . . .

فِي إِحْدَى اللَيَالِي القَارِسَةِ البَرْدِ وَقَفَ « چو » فِي الشَّارِعِ تَحْتَ أَحَدِ المَصَابِيحِ ، وَقَدْ أَتَكَأَ عَلَى المَرِّ ، وَوَضَعَ المِكْتَلَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لِيَقِيَهُ البَرْدَ ، وَأَسَدَّ المِكْنَسَةَ إِلَى الجِدَارِ ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ

فيمن يقصده من سكانِ الحىِّ مستجدياً^(١) . وبيناً هو كذلك إذ رأى شخصاً يدنو منه ، ويتفرس^(٢) في وجهه ، ثم يقول له : « مالى أراك زائغ البصر؟ فيم تفكر؟ إخال^(٣) أنك محمومٌ أو جائعٌ مضت عليك أيامٌ بل أسابيعٌ لم تتناول ما تمسكُ به رمقك^(٤) . دونك^(٥) تلك القطعة الفضيّة . . . أسرع إلى أقرب مطعم . . . ولكن قبل أن تنطلق عرّفنى من أنت؟ هل لك صديقٌ في هذه الحياة؟ » .

فقال ، وقد ففر^(٦) فاه دهشاً : « إني « چو » . ليس لى صديق . . . أيمكن أن يجد فقيرٌ معدمٌ مثلى صديقاً !!
ألا تتخذُ منى صديقاً؟ إني مثلك وحيدٌ لا صديقَ لى .
تصافحَ الرجلان ، ومضى هذا ليُشبعَ جوعته ، وانطلقَ ذاك إلى كوخه الذى يعيش فيه مزهواً^(٧) مسروراً ؛ إنه قد وجدَ الصديقَ .

لم يكن هذا الرجلُ أحسنَ حالاً من « چو » ؛ فقد كان ممزقَ الثيابِ ، أشعث^(٨) أغبرَ ، يعيش مما يكسبه من صنيعِ بعضِ اللبِّ

(١) طالباً العطية والاحسان (٢) يتأمل (٣) أظن (٤) الرمق : بقية الحياة
(٥) خذ (٦) فتح فاه (٧) غوراً (٨) مقبر

الساذجة التي يبيعها لأبناء الفقراء بأتفه الأثمان . وقد يمر عليه اليوم إثر اليوم ، وهو يعرض سلعته على الأطفال ، ولا يجد بينهم من يحمل في جيبه درهما يشتري به إحدى اللب .

كانا يلتقيان كل يوم فيتحدثان طويلاً ، ويقص كل منهما على صاحبه ما لاقاه في يومه ، حتى إذا ما حان وقت النوم أنصرفا بعد أن يدس ذلك الرجل في يد « چو » قطعة أو قطعتين من البرنز إن كان معه نقود ، وإلا اعتذر له عن عذمه^(١) بقوله : « إننا اليوم في الفقر سواء يا « چو » ، ثم يمضي وهو دافع العين . لقد شاءت الأقدار أن تفرق بين الصديقين اللذين تعارفا على غير موعدي ؛ فقد ضم أحدهما القبر من غير أن يسير إلى جواره غير صديقه ؛ وبقي « چو » ايندب حظه المائر^(٢) ، وليبكي بدمعه المنهمر ذلك الصديق المحسن .

كان « چو » يعمل قبيل الغروب ، فجاءه شرطى وأمره بأن يتبعه إلى دار الشرط . ولما مثل بين يدي الموظف المختص سأله عما يعرف عن الميت ، فقص عليه - ودموعه تنهمر غزيرة من مآقيه - كل ما عرفه عنه من نبئ ، وشهامية ، وفضل . وذكر له

(١) المُدَم : الفقر (٢) الساقط ، النسي

كلّ ما سمعه منه خاصّاً بأهله ونشأته . ولما انصرف من تلك الدار وجد في جيبه « شلّين » ، فوقع في حَيْرَةٍ من أمره ، وأخذ يُسأل نفسه : أتى لك ذلك المبلغ الكبيرُ؟ وكيف وصلَ إلى جيبك؟ ولم يدرَ أن مُحسناً كان يرى بُكاءه ويستمعُ لحديثه ، فأخذته الشفقةُ عليه ، فأسقطَ ذلك المبلغَ في جيبه وهو خارجٌ من دار الشرط .

لقد كان « چو » وفيّاً لصديقه بعد مماته ، كما كان مُخلصاً له في حياته ؛ ففي كلِّ يومٍ يذهبُ إلى قبره ، فيكنسُ ما حوله ، ويبللُ الترابَ بدمعه الغزيرِ ، ويُناجيه^(١) بألوانٍ من الدُّكْرِى المُوَثَّرَةِ في عباراتٍ عميقة ، ويدعو اللهَ أن يُسكِّنه فسيحَ جنّانه ، ثم ينطقُ إلى عمله ، وهو يرتقبُ^(٢) اليومَ الذى يجتمعُ فيه بصديقه في تلك الدارِ التى لا يعرفُ فيها المرءَ ذُلّاً ولا هواناً .

بعد بضعةِ أيامٍ من موتِ ذلك الصديقِ قصّدتْ سيدةٌ - تلبسُ السوادَ - « چو » ، ورجّته أن يدها على المقبرةِ التى دُفِنَ فيها صديقه ، ثم قدّمتْ له قطعةً مستديرةً صفراءَ ذاتَ بَرِيقٍ أخاذٍ^(٣) ، فردّها إليها ؛ لأنه لم يشأ أن يأخذَ أجرًا على عملٍ يحسبُه من

واجب الوفاء لصديقه ، ولكنها أبت أن تستردّها ، ورجّته أن يستعينَ بها على الجوع والفقْر .

سار « جو » أمام السيدة مشغولَ الفكر بتلك القطعة الصفراء التي مُنِحَها^(١) . لقد حَسِبَها أولَ الأمرِ قطعةً مُحَاسِبَةً ، ولكنه وجد أنها لا تَمُتُ^(٢) إلى النحاسِ بِصِلَةٍ . ألا يمكنُ أن تكونَ « الجنيه » الذهبَ الذي تَمَتَّى بِأمثاله جيوبُ السادةِ الأغنياءِ ؟ بلى ، إنه « جنيه » من الذهب . ثم سارا حتى وصلا إلى المقبرة ، وهناك جثت^(٣) السيدةُ أمامَ القبرِ ، وأخذت تُصَلِّي وتَدْعُو ، بينما كانت دموعُها تتساقطُ غزيرةً من مآقيها .

إنها سيدهُ يَبْدُو عليها الوقارُ ، تُزِينُ أصابعَها بِخواتمَ رُصَعَتْ بِالْأحجارِ النفيسةِ . إنها تبكي ذلك الفقيرَ الذي طواه الرَدَى^(٤) في تلك الحفرة . ولم تبكيه ؟ أتراها كانت تُحِبُّه ؟ إن صحَّ ذلك فلماذا لم تُقَدِّمْ له في حياته يدَ المساعدةِ ، ولم تُنقِذه من تلك الحياةِ اللاعبةِ^(٥) التي كان يحياها في خِصاصةِ^(٦) وإقلالٍ ؟ لا ، إن عاطفةَ أرقى وأنبلَ من عاطفةِ الشفقةِ هي التي تُسْقِطُ دموعَها . . .

(١) أعطيا (٢) تتصل (٣) خرعت ساجدة (٤) الهلاك والموت
(٥) الكثيرة التعب والاعياء (٦) فقر

مَنْ يَدْرِي لَعَلَّهَا صَدِيقَةٌ أَوْ قَرِيبَةٌ فَرَّقَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ عَوَادِي^(١)
الزمن ، وحوادثُ الأيامِ !!!

عاد « جو » إلى مأواه في « تَمَّ أولُ الوُوزِ » ، ثم بدا له أن يتحققَ
صِدْقَ ما أَخْبَرَتْه به السيدةُ عن القطعةِ التي أعطتها إياه . فذهبَ
إلى أقربِ متجِرٍ من منزله ، وطلب من صاحبه أن يبيعه أُقَّةً من
اللحمِ ، ولما طلب منه الثمنَ قَدَّمَ له (الجنيه) ، فنظرَ إلى « جو »
في رِيبَةٍ^(٢) ، ثم قال له : « أُقَّةٌ لحمٍ و (جنيتها) ذهبيًا ؟ من أَيِّ
مخلوقٍ سَرَقْتَ هذا ؟ إنني أعرفُكَ لا تملكُ من مَتَاعِ الدنيا غيرَ تلكِ
الأَسْمَالِ^(٣) البالية التي لا تكادُ تسترُ جِسمَكَ . أَجِبْ وإلاَّ أبلغتُ
أمرَكَ للشَّرْطِيِّ . . . إنه قريبٌ منا » .

عَبثًا حاولَ « جُو » أن يُفهِمَ التاجرَ أن (الجنيه) وصل إليه
من غرضٍ شريفٍ ، وأنَّ سيدةً محسنةً منحتهُ إياه ، ولكنَّ هذا
القولَ كان يزيدُ الرجلَ إيمانًا بأن « جو » لصٌ سارقٌ ، وقد
وجدَ الفُرْصَةَ سانحةً لاستغلالِ فقرِ « جو » وسذاجتِهِ^(٤) لمصلحته .
فلم يدعِ « جو » يغادرُ متجرَهُ إلا بعد أن تنازلَ له عن ثمانية

(١) الحوادث والنوازل (٢) الرِيبَةُ : التهمة والشك (٣) الملابس القديمة
(٤) بساطته

(شلمات) منه . عاد «جو» إلى مسكنه فتعقبه^(١) لص استطاع بمهارته وحذقه أن يسلب منه باقى (الجنيه) من غير أن يشعر . وهكذا عاد «جو» فقيراً مُعدماً كما كان قبل أن تلاقيه تلك السيِّدة المحسنة .
ما أمرّ الحياة حينما يجتمعُ الفقرُ وفقدُ الصديق . . . لقد ضارت أيامُ «جو» بؤساً لا حدَّ له ، وشقاءً لا نهايةَ له . . . كان الشرطُ^(٢) يُطارِدونه أتى ذهب ؛ لقدارتِه ، ورتانة ثيابه . وكانوا يأمرونه ألا يقفَ ، وإن كان ذلك للاستراحة من عناء^(٣) العمل . وكان كلما ذهبَ إلى شارعِه ليكنسه طرده منه الشرطىُّ المكلفُ حراسته . ولكنه يريدُ أن يكسُ ليا كل . . . إنه جائعٌ . . . كان يتحملُ كلَّ أذىٍ ويصبرُ على كلِّ شرٍّ حتى لا يموتَ جوعاً . وذاتَ يومٍ تضايقَ منه الشرطىُّ فساقه إلى دار الشرطىِّ مُتَّهماً إياه بوقوفه في عرضِ الطريقِ من غيرِ عملٍ ، وكلما أمره بالسيرِ أظهرَ الطاعةَ ، حتى إذا ما أنصرفَ عاد إلى الوقوفِ ، واستجداء^(٤) المارة .

حقق السيدُ «سناجزباى» الضابطُ في تلك الشكوى ، وكان يعلمُ من أمرِ «جو» الشئ الكثيرَ ، فلم يأخذ بكلامِ الشرطىِّ ، بل

(١) تبعه (٢) جمع شرطة وشرطى (٣) تعب (٤) سؤالهم

قابل قوله باحتقارٍ وازدراءٍ؛ فهو يعلمُ منه الكذبَ والتدليسَ^(١) والوشايةَ، ثم قال له في تهكمٍ مُرٍّ: « لا تَخَفْ من « چو »؛ فإنه لن يُلحِقَ بك أذى . إنه رجلٌ مُسالمٌ لا ضررَ منه على أحدٍ كائنًا من كان . » ثم أمره بأن يَمِضِيَ إلى عمله، وقال لحو: « انتظرني في الخارج؛ لأنني في حاجةٍ إليك . » فصَدَعَ^(٢) بالأمر .

ولما صار خارجَ حجرةِ الضابطِ قال الشرطيُّ لحو: « أيها الشريرُ، حذارٍ أن تأتيَ إلى حيِّ « هُولبورن » ثانية . إنني لورأيتك فيه إذا لأصابك مني ما لا قبيلَ^(٣) لك باحتماله . » ثم سارَ قليلاً، والتفتَ إليه وقال: « لك مُطلقُ الحريةِ في أن تذكرَ للضابطِ ذلك الوعيدَ الذي توعَّدتكَ به ، ولكن تذكرْ ما سيصيبُك إن أنتَ أقدمتَ على هذا . »

كان الضابطُ قد دَعَا أصدقاءه لتناولِ (الشاي) عنده في مساء ذلك اليومِ ، فخطَرَ بباله ، وهو يُحَقِّقُ مَسْأَلَةَ « چو » أن يأخذه معه عند عودته إلى المنزلِ ، ليقدِّمَ له ما يزيدُ على حاجةِ ضيوفه من فطائرٍ وحلوى ، وقد أنقذَ ذلك الخاطرَ . ولأولِ مرةٍ

(١) الفس (٢) صدع بالأمر: أطاع ونفذ (٣) قدرة

أكل « جو » حتى امتلأت معدته ، من أطيب الأَطعمةِ التي كان يراها ، ولا يعرف إن كانت تُؤكلُ أم توضعُ للزينةِ .

لقد أحسنَّ « جو » فوارقَ المجتمعِ المرَّةَ القاسيةَ في ذلك اليومِ ، فهذا موظَّفٌ صغيرٌ يُقدِّمُ لأصدقائه الأربعةَ فطائرَ وحلوى بما يكفي إطعامه أربعةَ أشهرٍ . يا بؤسَ الرَّجُلِ الفقيرِ حينما يُدركُ أنه لا يَجدُ الخبزَ الذي يدفعُ به المسغبةُ^(١) عن نفسه ، بينما يُدركُ أن سِواه تتراحمُ أطيبَ الأَطعمةِ على مائدتهِ ، فيُنخَمُ^(٢) من غيرِ أن يتناولَ شيئاً ؛ لأنه لا يدري ماذا يأكلُ ، وماذا يُبقي !!!

أظلمتِ الدنيا في عيني « جو » ، وضاعت سبيلُ الارتزاقِ في وجهه ، وصار ينتقلُ بينَ أحياءِ « لندن » فزعاً مهموماً يبحثُ عن عملٍ ، ولكنه لا يدري ماذا يعملُ ؛ فهو لم يتعلمَ صناعةً تُدرُّ عليه أخلاقاً^(٣) من الرزقِ ، ولم يوهبَ تفكيراً سليماً يكفلُ له الوصولَ إلى ما يريدُ . لقد بات طريداً مُشرداً تُبلِّغُ عليه بطنه بالعملِ ، ويأمرُه الشرطُ بالسيرِ ، وينصحُ له كلُّ من يستجديه بالعملِ . وأخيراً تنوءُ قدماهُ بحمله فيسقط على الأرضِ من جُوعٍ ومن إعياءٍ بالقربِ من الكوخِ القذرِ الذي يقضى فيه ليله ، فيراهُ بعضُ الصبيةِ من

(١) المسغبة : المجاعة (٢) تمتلئ بطنه لدرجة المضايقة (٣) جمع تخلف

وهو ما استخلفته من الشيء .

أبناء ذلك الحى، فيجتمعون حوله، ويُبصرونه وهو مُصفرُّ الوجه، مُتصلبُ الأطراف، عديمُ الحركة، فيفزعون منه، ويهربون إلى آباءهم وأمهاتهم ليخبروهم بما لحقَ «جو». فيتساءل بعضهم، ويتضحك الآخرون، بيد أن شاباً أخذته الشفقة على «جو» حينما سمعَ بما حدث له، فانطلق إليه وجسَّ نبضه، فأدرك أنه ما زال حياً، فاحتمله بين يديه، وانطلق به إلى كوخه. ثم مضى إلى منزله، وعاد إليه بقدرج من (الشاي) المزوج بقليل من اللبن، ثم أخذ يسقيه ذلك الشراب الدافئ. وبعد أن استعاد «جو» بعض قوته انصرف الشاب من غير أن ينتظر كلمة يشكره بها «جو» على ما قدّم من فضل، لأنه يُدرك أن هذا من أهمِّ واجباته.

عاد الأمل في الحياة إلى «جو» بعد أن وجد إلى جواره ما يساوي ثلاثة دراهم تركها ذلك الشاب عمداً عند انصرافه. ولكن هل تنفع الدراهم الثلاثة رجلاً لا عمل له، وليس له مورد رزق يُدرُّ عليه مالا يعيش من ورائه؟ لقد انجدر في اليوم الثاني الدرهم الثالث إلى جيب بائع الخبز، وطفق «جو» يعدو في

الشوارع هائماً على وجهه ، يمتدُّ بصره الحائرُ إلى الطريقِ ؛ كأنما يبحثُ عن شيءٍ فُقِدَ منه ، وعَهْدُ الجميعِ به أنه لا يملكُ شيئاً تمتدُّ إليه يدُ سارقٍ فيتعقبه ويبحثُ عنه . فويلٌ للفقيرِ حين يقسو به الإنسان . إن « جو » في الحقِّ يبحثُ عن عقله الذي ضيَّعه الفقرُ وألمُ الجوعِ ، واجتماعُ الهمومِ ، وسوءُ الحظِّ .

عرَفَ « جو » من قبلُ معجوزاً فقيرةً ، فكان يقومُ لها بقضاء ما تحتاجُ إليه نظيرَ أجرٍ تافهٍ^(١) هو بعضُ لقياتٍ مما تمافه^(٢) نفسها . وكان يُدركُ أن تلك المرأةَ أحسنُ منه حالاً ؛ فإن هناك سيدةً مُحسنةً ، تزورها الفينة^(٣) بعد الفينة ، وتتركُ لها بعضَ المالِ ، لتستعينَ به على الحياة . وبينما كان سائراً في طريقه يَعدُّو إذ أبصرَ تلك المعجوزَ تسيرَ على ثلاثٍ^(٤) مُحدَّودةِ الظهرِ ، فما إن رآته على حاله هذه حتى نادته ، فأقبلَ عليها وقال : « إنني جائعٌ » . فألقتُ إليه لُقمةً فالتهمها^(٥) ، ثم سقطَ على الأرضِ ، وهو يرتعدُّ من شدةِ البردِ .

وبينما كانت المعجوزُ تفكرُ فيما تفعلُ لذلك التائه المسكينِ جاءت

(١) حقير (٢) تكررته (٣) الحين بعد الحين

(٤) الثلاث : قدمها وعصاها (٥) التهمها : ابتلعها بمرّة

السيدة المحسنة لزيارتها ، وأبصرت « چو » على حاله هذه ، فأمرت خادمها باستدعاء الحوذى ، وكلفته أن يجعله إلى مركبتها وينطلق إلى المنزل بعد أن يعرج على طبيبها الخاص ؛ ليُسعف المسكين بالعلاج . فأستعف الطبيب ثم أخذ إلى قصر تلك السيدة الكريمة .

فتح « چو » عينيه فالنق (١) نفسه ينام على فراشٍ وثير (٢) في حجرة مضاءة ، وإلى جواره وعالم مملوء بالحساء ، فحسب نفسه في حلم (٣) ، نجس أعضائه حتى اقتنع بأنه في حقيقة لا في خيال ، ولا حلم . فتجرع الحساء عن آخره ، ثم أدرك أنه لن يستطيع البقاء في ذلك الجو الذي لم يُخلق له ، فغادر الفراش وانطلق يعدو إلى الشارع ، ولم يدر ما حلَّ به . غير أنه وجد نفسه بعد أيام في إحدى المصحات يُعالج من حمى شديدة أصابته في الأمعاء وكادت تقضى عليه .

وقبل أن يتم برؤه لفظه (٤) المستشقى ، فاحتضنته الشوارع يذرعها (٥) كما كان يفعل من قبل ، وأبصر به طبيب سائر في الطريق ، وأدرك أنه مريض ، فأقبل عليه وجس نبضه ، ثم مد إليه يده

(١) وجد (٢) مهد ، مرج (٣) الحلم بضم اللام وسكونها : ما يراه النائم (٤) رماه (٥) يقبسا

ليتوكأ عليها ، وطلب منه أن يتبعه إلى داره . وهناك أمر خادمه ، أن يهيئ الحمامَ لذلك المسكين ليغتسل ، ويُعدَّ له ثياباً نظيفةً ، ففعل . وبات « جو » ليلته هادئاً مستريحاً .

وبعد أيام كان الطيبُ جالساً بالقرب من سرير « جو » ، فقام هذا من فراشه وهو في شدة المرض ، وحاول مُغادرة الفراش ، فقال له الطيبُ : « ابقَ في مكانك ! ماذا تريدُ ؟ »

فقال « جو » : « إنني أريدُ الذهابَ إلى المقبرة . إنني أريدُ اللحاقَ بصديقي الذي جمعتني به أوأصر^(١) المحبة والوفاء . إنني أتوق^(٢) لرؤيته ، وأريدُ أن أنامَ بجواره . لقد مضى على فراقنا أمدٌ طويلٌ ، وكان من الواجبِ ألاَّ نَفترقَ . لقد استراح وخلفني لأشقى . إنني أعيش هنا وحيداً ، وهو يعيش هناك وحيداً ، فيجبُ أن نجتمعَ لِنَسْتأنسَ كلُّ منا بصاحبه .

فقال الطيبُ لجو : « نَمَ وستكونُ إلى جواره في الوقت الملائم . . . »

فقال له : « أتعِدني بدفني معه ؟ »

فقال الطيبُ : « لك على هذا » .

(١) جمع آصرة وهي الرحم والقرابة والهيئة (٢) اشتاق

فقال (جو): «سَيِّدِي، هُنَاكَ بَقْعَةٌ طَاهِرَةٌ مِنَ الْأَرْضِ اعْتَدْتُ أَنْ
أَنْظِفَهَا وَأَتُرَّ الرِّيحِينَ فَوْقَ أَرْضِهَا، وَأُرْوِي جَدَّتَهَا^(١) بِدُمُوعِي .
آه... إِنَّ الدُّنْيَا مُظْلَمَةٌ فِي عَيْنِي... أَيْنَ النُّورُ؟ أَيْنَ هُوَ...؟»
الطَّيِّيبُ: «إِنَّ النُّورَ آتٍ سَرِيعًا.» ثُمَّ سَادَ الصَّمْتُ وَخِيَمَتْ
عَلَى الْمَكَانِ الرَّهْبَةُ وَالسَّكُونُ، ثُمَّ قَالَ الطَّيِّيبُ «اِجُوعُ»:
(جُو، جُو،) كَيْفَ أَنْتِ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ؟»

فقال (جو): «إِنِّي هُنَا أَسْمُكُ .»

الطَّيِّيبُ: «أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُرَدِّدَ مَا أَقُولُ؟»
جُو: «نَعَمْ: نَعَمْ.. إِنِّي وَسَطُ الظَّلَامِ الدَّامِسِ أَحْسُ
عَطْفَكَ، وَأَدْرِكُ رِعَايَتَكَ .»
الطَّيِّيبُ: «قُلْ «اللَّهُ.»»

جُو: «نَعَمْ. نَعَمْ.» «اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَا سَيِّدِي.»
الطَّيِّيبُ: «اللَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»
جُو: «اللَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. أَيْنَ النُّورُ يَا سَيِّدِي؟»
الطَّيِّيبُ: النُّورُ قَرِيبٌ جَدًّا. وَالْبَقَاءُ لِلَّهِ .

أَمْسَكَ الطَّيِّبُ عَنِ الْكَلَامِ ، وَصَمَّتْ^(١) (چو) إِلَى الْأَبَدِ .
لَقَدْ أَسْبَغَ عَلَيْهِ النُّورُ نَعِيمَهُ . لَقَدْ انْتَقَلَ مِنْ عَالِمِ الشَّرُورِ وَالْآثَامِ .
لَقَدْ وَدَّعَ تِلْكَ الْحَيَاةَ الْفَانِيَةَ وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِ الَّتِي وَسِعَتْ
كُلَّ شَيْءٍ ، وَفِي ذَلِكَ الصَّدِيقِ الْمَخْلُصِ الَّذِي سَيَلِقَاهُ عَمَّا قَرِيبٍ ،
وَفِي هَذَا الطَّيِّبِ الَّذِي لَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرَكَهُ لِيُودَّعَ الْعَالَمَ وَهُوَ حَاقِدٌ
نَاقِمٌ عَلَى جَمِيعِ بَنِيهِ .

القِصَّةُ الثَّالِثَةُ

بُولُ دُمْنِي الصَّغِيرِ

أَوْ الْأَمَلِ الضَّائِعِ

كَانَ « دُمْنِي » الصَّغِيرُ ابْنًا لِتَاجِرٍ مُوسِرٍ ، وَاسِعِ النِّعْمَةِ ، وَافِرِ الثَّرَاءِ ، يَبْدَأُ أَنَّهُ كَانَ جَافَ الطَّبْعِ ، بَارِدَ الشُّعُورِ ، تَمَنَّى مُذْ تَزَوَّجَ أَنْ يُعْقِبَ وَلَدًا يَخْلُقُهُ فِي تِجَارَتِهِ الَّتِي شَغَلَتْ فِكْرَهُ كُلَّ عُمْرِهِ ؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ شَيْءٍ لَدَيْهِ فِي الْوُجُودِ . وَلَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ يُؤَمِّلَ خَلْفًا يُشْرِكُهُ مَعَهُ فِي عَمَلِهِ ، وَيَحْمِلُ اسْمَهُ بَعْدَهُ ، ذُونَ أَنْ يُبَادِلَهُ الْحُبَّ .

بَدَتْ دَلَائِلُ رَغْبَتِهِ جَلِيَّةً ، فَعَنُونَ قَائِمَةَ الْمَسْجَرِ بِاسْمِ « دُمْنِي وَوَلَدِهِ » ؛ تَفَاوُلًا بِتَحْقِيقِ طَلِبَتِهِ . وَقَدْ اقْتَضَتْ الْعِنَايَةَ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ يُجَابَ نِدَاؤُهُ ، فَكَادَ يَطِيرُ سُورًا وَطَرِبًا بِهَذَا الْمَوْلُودِ السَّعِيدِ ، الَّذِي عَقَدَ عَلَيْهِ الْأَمَلَ الْبَاسِمَ ، وَالْمُسْتَقْبَلَ الزَّاهِرَ .

وَكَانَ لِمُقَدَّمِهِ رَنَةٌ فَرِحَ تَجَاوَبَتْ أَصْدَاؤُهَا بَيْنَ جَوَانِبِ نَفْسِهِ ، فَأَقَامَ لِذَلِكَ مَا أَقَامَ مِنْ شِعَائِرِ التَّرْحِيبِ الْكَرِيمِ ، وَالْحَفَاوَةِ الْبَالِغَةِ .

مَاتَتِ الْوَالِدَةُ « بُولُ » إِثْرَ وِلَادَتِهِ — وَلَكِنْ مَوْتَهَا لَمْ يُحْرِكْ فِي الزَّوْجِ لَوَاعِجَ الْأَسَى . وَمَاذَا يَعْْنِيهِ مَا دَامَ الْمَوْتُ قَدْ تَجَاوَزَهُ ،

فتركه حياً يرعى فناه ویتعهد شؤنه - على أنها قد تركت بجوار
طفليها ابنة جميلة تدعى « فلورانس » عمرها ست سنوات .
لم يحن إليها قلب أبيها ، ولم يغمزها بعطفه ، حتى لقد أوشك أن
يتجاهل معرفتها إذا قابلها في الطريق ؛ ظناً منه أن الفتاة
لا تفيدُه وشركته ؟

فقدت « فلورانس » حنان الأب ، وشفقة الوالد الرحيم ،
فظلت تبكي أمها الرؤوم^(١) وهي في عزلتها ، من غير أن تجد
من يرحم فؤادها الحزين ، وقلبها الكظيم^(٢) .

وبعد أشهر قلائل اشتدت مفاصل الصبي ، ونما عوده واستوى .
وحينما بدأ يعرف من حوله ، لم يحب أحداً حبه لأخته « فلورانس » ؛
فقد كان يتسم لها ابتسامة الطفولة البريئة ، ويمدُّ إليها ذراعيه
مرحباً - وملائكة الرحمة ترفرف عليه حرصاً من كيد الحاسدين -
كلما شاهدتها مُقبلةً صوبه . ولا غرابة ؛ ففي ود أخيها لمست
كل ما يُعزبها في وخذتها الموحشة ، واعتاضت به عن بر أبيها

(١) الرؤوم : كثيرة العطف

(٢) الكظم : الحزن الشديد ، وقلب

كظيم : شديد الحزن

المتعسف^(١)، فكانت تداعبه في أوقات فراغها، وتقوم بخدمته غير مكترثة لما يعترها من نصب^(٢). ولما بلغ السن الملائمة أخذ إلى الكنيسة، وتسمى باسم أبيه «بول دومي» في حفل عظيم أقامه له، وفيه نال إعجاب الحاضرين صورةً وجمالاً.

وفي ذلك اليوم تملك الطفل بردٌ شديدٌ، أخذ يتزايد يوماً بعد يوم، حتى ضعف جسمه، وهنت^(٣) قوته، واصفرَّ وجهه، فأصبح مُعرَّضاً لأمراض الحصبة والجدرى والسعال الديكي، كما قالت مربيته «ريشاردز». وكلما تخلص من مرضٍ انقضَّ عليه مرضٌ آخرٌ. وكلما ظهرت له سنٌ أصابته نوبةٌ من النوبات.

ورغم ما أصابه من تحول^(٤) — وهو لا يزال صبيًا لم يتجاوز السادسة من عمره — فإن مسحة^(٥) الجمال ما انفكت مطبوعةً على محياه^(٦)، وبشاشة الوجه لم تُفارقَه لحظةً، والسرور بادٍ عليه كل حين، ولا سيما عند ما يلعب هو وأخته في حُجرتهما الخاصة، ولكن كانت تظهرُ عليه آثارُ الجهد والعناء. ومن دواعي العجب وإثارة الدهشة رؤيته كالكبار، يفعل كما يفعلون،

(١) السبي الخلق، القاسي في معاملته (٢) النصب: التعب (٣) ضعف

(٤) التحول: المتزائل (٥) يقال على فلان مسحة من جمال أي شيء منه (٦) وجهه

وَيَتَكَلَّمُ كَمَا يَتَكَلَّمُونَ، وَهُوَ بَيْنَ بَرَاثِنِ الْمَوْتِ وَمَخَالِبِ الْوَبَاءِ^(١)
السَّامِّ، مِمَّا حَطَّمَ قَلْبَ مُرَيِّئِهِ الَّتِي وَدَّتْ لَوْ يَكُونُ طِفْلاً يَتَذَوَّقُ^(٢)
حَلَاوَةَ الطُّفُولَةِ، وَيَتَمَتَّعُ بِجِمَالِهَا، فَيَلْعَبُ كَمَا يَلْعَبُ الصِّغَارُ،
وَيَتَحَدَّثُ كَمَا يَتَحَدَّثُونَ .

وقد اعتاد أبوه أن يأخذه بعد الغداء، ويجلسه على كرسيه،
يجاذبه أطراف الحديث، فكانا يتفقان أحياناً، ويختلفان أحياناً.
وذات يومٍ بينما كان الابنُ في جلسةٍ كعادته سأل أباه :
« ما النقودُ يا أبتاهُ ؟ »

الأب — « هِيَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنُّحَاسُ يَا بُنَيَّ . إِنَّكَ تَعْرِفُ
مَعْنَى النُّقُودِ يَا (بُول) ! »

الابن — « نَعَمْ، وَلَكِنْ مَا فَائِدَتُهَا ؟ »

فأجاب الأبُ — وقد أمسكَ يَدَيْ طِفْلهِ الصَّغِيرِ يَمِثُّ بِهِمَا :
« بِالنُّقُودِ تَصِلُ إِلَى مَا تَرِيدُ يَا بُنَيَّ الْعَزِيزُ . »

فسحبَ « بُول » يَدَيْهِ بَرَفِقٍ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتِ خَانِقٍ
تَبْدُو فِي مَقَاطِعِهِ آيَاتُ الْأَسَى^(٣) وَالْجَزَعِ : « وَلَكِنهَا لَمْ تَسْتَطِعْ إِنْقَازَ

(١) مرض عام (٢) يتذوقها : يذوقها شيئاً بعد شيء (٣) الأسى : الحزن

أُمِّي لَتَبَقَ حَيَّةٌ تَمَخَّنِي حَنَانَهَا وَعَظْفَهَا، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَهْبِنِي الصَّحَّةَ
وَالقُوَّةَ وَالنُّمُوَّ لَتِمَّ سَعَادَتِي . »

فَلَمْ يَسَعِ الأبُّ إِلَّا أَنْ يَبْعَثَ الأَمَلَ فِي نَفْسِ ابْنِهِ الْمُتَقَوِّضَةِ،
وَيُعِيدَ إِلَيْهِ بِالإِجَاءِ مَا ذَوَى^(١) مِنْ صِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ، وَمَا ذَبُلَ مِنْ
زَهْرَةِ طِفْلُوتهِ : « دَعَّ عَنْكَ هَذَا الوَهْمُ يَا « بُولُ » ؛ فَإِنَّكَ قَوِيٌّ
الْبِنْيَةِ^(٢) ، سَلِيمٌ البَدَنِ كغَيْرِكَ مِنَ الأَطْفَالِ . »

فَرَدَّدَ الصَّبِيُّ الصَّوْتَ وَهُوَ يَتَأَوَّهُ وَيَزِفُّ : « لَا يَا أَبِي ؛
حِينَمَا كَانَتْ « فُلُورَانِسُ » صَغِيرَةً وَفِي مِثْلِ سِنِّي ، لَمْ تَلُقَ الَّذِي
لَاقَيْتُ ؛ مِنْ تَعَبٍ بَعْدَ لَعِبٍ قَلِيلٍ ، وَضَعْفٍ يَسْرِي فِي أَعْضَائِي
سَرِيانَ الدَّمِ فِي الشَّرَايِينِ ، مِمَّا أَقْعَدَنِي وَحَرَمَنِي لَذَّةَ التَّمَتُّعِ بِمَا يَرْتَغَبُ
فِيهِ أُمَّتَالِي مِنَ اللَّعِبِ . »

اسْتَوَلَى القَلْقُ عَلَى الأبِّ ، وَبَرَقَ^(٣) بَصْرُهُ ، وَأَخَذَتِ الحَيْرَةُ
مِنْهُ كُلَّ مَا خَذِ . فَكُنْتُ تَرَاهُ مُشْدُوهاً^(٤) فَاقْدِ اللَّبَّ^(٥) ، فَأَرْسَلْ
إِلَى أُخْتِهِ يَسْتَشِيرُهَا فِي أَمْرِ « بُولُ » ثُمَّ اسْتَدْعَى الطَّيِّيبَ لِعِيادَتِهِ ،
فَأَتَى عَلَى عَجَلٍ ، وَفُحِصَ عَنِ المَرِيضِ لِحِصَاً دَقِيقاً ، عَرَفَ مِنْهُ عِلَّةَ

(١) ذَوَى : ذَبُلَ (٢) البنية : الفطرة ، الجسم (٣) تحير فلم يطرّف

(٤) مدهوشاً ، متحيراً (٥) العقل

الدَّاءُ ، ووقفَ على الدَّواءِ فقال : إِنَّ جِسْمَ الطِّفْلِ أَهْيَفُ^(١)
لَا يُنَاسِبُ سِنَّتَهُ ، وَعَقْلُهُ أَكْبَرُ مِنْ جَسَدِهِ . إِنَّهُ يُفَكِّرُ تَفَكُّيرَ
الرِّجَالِ ، وَيَبْدُو عَلَيْهِ الْهَمُّ وَالقَلَقُ ، فِي وَقْتٍ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى كَثِيرٍ
مِنَ المَرِحِ وَاللَّعِبِ ؛ وَلِذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَغْيِيرِ الهَوَاءِ عَلَى قُرْبٍ مِنْ
سَاحِلِ البَحْرِ ؛ فَإِنَّ نَسِيمَ البَحْرِ يُفِيدُ الأَطْفَالَ أَجَلَ فَائِدَةٍ .

وَأَفَقَ الأبُّ عَلَى سَفَرِ ابْنِهِ وَمُهْجَةِ نَفْسِهِ ، تَصَحَّبَهُ أُخْتُهُ وَالمَرِيئَةُ ؛
إِجَابَةً لِرَغْبَةِ الطَّيِّبِ النُّطَاسِيِّ ، وَأَمَلًا فِي اسْتِشْفَاءِ طِفْلِهِ العَزِيزِ ،
إِلَى « بَرَايْتُون » - وَهِيَ مَدِينَةٌ بَحْرِيَّةٌ تَبْعُدُ سَاعَةً عَنِ « لَنْدَن » -
فَاخْتِيرَتْ مَصْحَةً جَمِيلَةً ، حَسَنَةً المَوْقِعِ ، كَامِلَةً الأَدْوَاتِ ، نَزَلُوا بِهَا ،
تَدِيرُهَا سَيِّدَةٌ شَمَطَاءُ^(٢) ، عَابَسَةُ الوَجْهِ ، بَارِزَةُ الأنْفِ ، جَاحِظَةٌ^(٣)
العَيْنِينَ ، تُدْعَى السَيِّدَةَ (بِنِكِينِ) . وَكَانَ يَعْيشُ لَدَيْهَا فِي ذَلِكَ الوَقْتِ
طِفْلَانِ أَخَوَانِ : فَتَاةٌ ذَاتُ جَمَالٍ ، شَابٌ مُقْلَتِيهَا زُرْقَةٌ ؛ وَغَلامٌ تُدَلُّ
حَرَكَاتُهُ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ حُرْقَةٍ الجَوِيِّ^(٤) ، وَلَوْعَةٍ الوَجْدِ الدَّفِينِ ،
فكَثِيرًا مَا سَأَلَ « فُلُورَانِسَ » بِصَوْتِ بَاكٍ ، عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي
يُوصِلُهُ إِلَى الهِنْدِ ، حَيْثُ يَقِيمُ أبَوَاهُ .

(١) ضامر . (٢) شعرٌ رأسها أبيض يخالطه سواد . (٣) يُقالُ جَاحِظَتْ
عَيْنُهُ أَى عَظُمَتْ مَقْلَتَاهُ وَتَأَتَتْ . (٤) الحَزَنُ .

هاجت بلابلُ الرَّجُلِ ، وثارت خواطرُه ، فأصبح لا يُرى
إلا مُكتئبًا حزينا ، من أجل وارثه وفليذة^(١) كبدِه ؛ فقد استهام
به قلبُه ، وسهد^(٢) له جفنه ، فلم يزرِ الكرى^(٣) مُقلتيه ؛ تعلقًا بفتاهُ ،
وشغفًا بحبّه . ولو أنه ما زالَ غيرَ مُكثرٍ لا بنته المسكينة ،
يَحرمُها الطاف^(٤) برّه ، ويحولُ بينها وبينَ عاطفةِ الأبوةِ الكريمةِ
التي ترعاها بالحنان ، وتكلوها بالمطف والإحسان ، فضلًا عما
كان يتاججُ في صدره من لظى^(٥) الغيرةِ ونارِ الحقدِ كلما رأى
ابنه يخطبُ ودَّ أخته أكثرَ منه ؛ فقد كان يتعنى أن يفوزَ بتلك
المنزلةِ التي نالتها « فلورانسُ » من أخيها . ولكنَّ هذا لم يوثرْ
في نفس الأبِ ، فأخذَ يعوِّدُ طفلهُ مرَّةً كلَّ أسبوعٍ في « برایتون »
حيثُ يُعالجُ ، ثم يستصحبُ ولديه إلى الفندقِ النَّازلِ به ، من
السَّبتِ إلى الاثنينِ ؛ ليَقِفَ على قدرِ ما آل إليه الملاجُ من
نجاحٍ ، وما نعيمَ به « بُول » من تحسُّنٍ في صحَّته . وذاتَ مرَّةٍ
قالتُ صاحبةُ المصحَّةِ للطفلِ : « أُنحِبُّني أيُّها الطفلُ العزيزُ ؟ »
فأجابَ وهو يهزُّ رأسَه : « إنِّي لا أُحبُّك ؛ بل أودُّ أن أرحلَ
من بيتك ؛ لأنِّي أكرهُ الإقامةَ فيه . » ومع نفوره من لُقياها

(١) قطعة من كبدِه . (٢) الشهاد : الأرق ، وبابه طرب . (٣) الكرى :

الناس . (٤) أطفه بكذا : برّه به واللطفة : الهدية . (٥) نار .

كَانَ يَجْلِسُ عَلَى أَرِيكَتِهِ وَيُصَوِّبُ إِلَيْهَا نَظْرَهُ مِثْلَمَا يَفْعَلُ مَعَ
وَالِدِهِ بِالْمَنْزِلِ .

مَضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ عِدَّةُ أَسَابِيعَ تَحَسَّنَتْ فِيهَا صِحَّةُ « بُول »
عَنْ ذِي قَبْلِ ، غَيْرَ أَنْ التَّحَسُّنَ لَمْ يَبْلُغْ شَأْوَهُ ؛ فَإِنَّ الطِّفْلَ
مَا زَالَ ضَعِيفًا لَا يَقْدِرُ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّيْرِ . وَلِذَا أُعِدَّتْ لَهُ عَجَلَةٌ
صَغِيرَةٌ يَدْفَعُهَا شَيْخٌ - بَلَغَ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا^(١) ، قَدْ أَلْفَهُ وَاطْمَأَنَّ إِلَى
حَدِيثِهِ - كُلَّ يَوْمٍ إِلَى شَاطِئِ البَحْرِ كِي يَقْضَى سَجَابَةَ النَّهَارِ
أَمَامَ أَمْوَاجِ المِصْطَخِبَةِ المِتْلَاطِمَةِ ، وَعُجَابِهِ^(٢) السَّاخِرِ المِتْدَفِّقِ ،
مُتَمَتِّعًا بِأَهْوَاءِ البَلِيلِ ، وَالنَّسِيمِ العَلِيلِ ، يَرْمُقُ^(٣) الأَطْفَالَ بِنَظَرَاتِهِ
وَهُمْ يَلْعَبُونَ وَيَسْتَحْمُونَ ، وَيَتَسَامَرُونَ تَحْتَ المِظَلَّاتِ ، وَقَدْ انْبَسَطَ
ضَوْءُ الشَّمْسِ فَوْقَ أَدِيمِ الأَرْضِ الصَّفْرَاءِ .

وَلَشَدَّ مَا كَانَ يُعْجِبُهُ هَذَا المَنْظَرُ وَيَمِيلُ إِلَى مُشَارَكَتِهِمْ .
وَلَكِنْ أَنَى لَهُ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى القِيَامِ ؟ فَاقْتَنَعَ بِجَوَارِ أَخْتِهِ
الَّتِي آتَرُ رُقُقَتَهَا دُونَ سِوَاهَا ، تَقْرَأُ لَهُ القِصَصَ وَتَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا ،
تَحْتَ أَطْبَاقِ ذَلِكَ الجَوِّ الجَمِيلِ ، وَفِي رِحَابِ^(٤) ذَلِكَ الهُدُوءِ

(١) عَتَا الشَّيْخَ عَتِيًّا : أَسَنَّ وَكَبَرَ . (٢) المَوْجُ (٣) رَمَقَهُ : نَظَرَ إِلَيْهِ

(٤) الرِّحْبَةُ : السَّاحَةُ المُنْبَسِطَةُ أَمَامَ المَسْجِدِ ، وَالمَجْمَعُ رِحَابٌ ، وَالمَعْنَى فِي سَاحَةِ

الهُدُوءِ الفِصْبَةُ

الشامل، وفي كنف تلك الطبيعة الساحرة التي تخلب الأبواب،
وتأخذ بمجامع القلوب .

وذات يوم بينما كان الفتى مع شقيقته في جلسة هادئة،
ابتدراها محدثاً : « إنني أهتم بك حباً يا أختي ! وثقي بأنني
سأمتوت لو ذهبت إلى الهند كأخت ذلك الصبي . »

فأملت « فلورانس » رأسها إليه، وهمست في أذنه : « إنني
لن أفارقك لحظة مدى الحياة . ويسرني أن أراك موفوراً^(١) الصّحة،
قوى البنية، معافى في بدنك ؛ لنكون معاً تواسينياً وأواسيك في
هذه الحياة . »

فقال « بول » : « نعم ؛ إنني أقدر شعورك نحوى أيتها الأخت
العزيزة ! وإن صحّتي في تقدّم . اسمعي يا (فلور) ! ماذا يقول البحر ؟ »
فلور : إنه لا يقول شيئاً يا عزيزي ! ولكن تلاطم الأمواج
يحدث ذلك الصوت الذي نسمعه . »

بول : « نعم ؛ ولكن الأمواج تقول شيئاً، وتقول دائماً .
وسرعان ما حوّل مجرى كلامه وقال : « ما المكان الذي
أراه بعيداً يا (فلور) ؟ »

فلور : « إِنَّهُ بِلَدَّةٍ أُخْرَى . »

واستمرَّ يتكلمُ مع شقيقته ، ولكنه كثيراً ما قطعَ اتِّصالَ الحديثِ ؛ ليُضغِي إلى أمواجِ البَحْرِ ، وَيَنْظُرَ إلى المَكَانِ النَّائِي .
وبعدَ أن مكثَ في « برايتون » زهاءَ سَنَةٍ تحسَّنتُ صحتهُ قليلاً ؛ غيرَ أَنَّهُ لم يزلْ على فُتوره ونحافتهِ ، هزيلَ الجِسْمِ ، ضيقَ الصِّدْرِ ، يَتَعَبُ لِأَقَلِّ شَيْءٍ . وفي بَعْضِ زيارَاتِ أَبِيهِ الأَسْبُوعِيَّةِ خاطَبَ صاحِبَةَ المِصْحَةِ مُستفسِّراً : « كَيْفَ حالُ وِلايِ أَيْتِها السَيِّدَةُ ؟ »

فقالَتْ : إِنِّي أَشعُرُ بِتَقَدُّمِهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .
الأب : حَقًّا إِنَّهُ في تحسُّنٍ ، ولكنهُ يَحْتَاجُ إلى سَنَوَاتٍ عَشْرٍ ؛
بل أَكثَرَ حَتَّى يَصِحَّ وَيَسْتَجِمَّ قُواهُ .
وأخذَ أبُوهُ يَقولُ — والأسْفُ مُلءُ جَنانِهِ — إِنَّ ضَعْفَهُ سَوْفَ
يُؤخِّرُ دِرَاسَتَهُ ، ورُبَّما قَضَى عَلى مُستقبَلِهِ ، مع أَنَّهُ الوارِثُ الأَكْبَرُ
لشِركَةِ « دُمبِي وولده » .

اتَّفَقَ السَيِّدُ « دُمبِي » مع « الدَكتورِ بِلَمْبَر » أن يُلحِقَ ابْنَهُ
بِالقِسْمِ الدَّاخِلِيِّ من مَدْرَسَتِهِ ، التي تَقْرُبُ من المِصْحَةِ ، على أن

تَبَقَى « فلورانس » تحت عناية السيدة « بيكين » صاحبة المصححة ،
للإشراف على أخيها ، وزيارته مرة كل أسبوع .

كانت مدرسة « الدكتور بلمبر » تؤثر هذا النمط^(١) من
التربية التي تعنى بمحشو المعلومات في أدمغة التلاميذ ، من غير
نظر إلى ما يلائم سنهم ، ويوافق استعدادهم ؛ إذ كان المشهور
عن « الدكتور بلمبر » أنه يستطيع أن ينهض بالتلميذ أيًا كانت
مقدرته العقلية ، وأن يكون منه رجلاً في وقت قصير ؛ ولذا وعد
بأنه سيكون من « بول » رجلاً في أذنى فرصة ممكنة ، وأقل
زمنٍ مُستطاع .

عند ذلك سأل الأب ابنة : « أتحب أن يكون منك رجل ،
وأن تعامل كرجل يا بني ؟ »

الابن : « إني أفضل أن أكون طفلاً ، وأن أعامل كطفل ،
وأود أن أمكث مع أختي فلوى . »

ترك « بول » المصححة وبدأ حياته المدرسية ، فاختصت بتعليمه
الآنسة « بلمبر » ابنة (الدكتور) وتدعى « كورنيليا » وهي مدرسة
مُثَقِّفة تلبس منظاراً ، ولا تعرف كثيراً ولا قليلاً عن نفسية

(١) النمط بفتحين : الجماعة من الناس أمرهم واحد ، ثم أطلق اصطلاحاً على الصنف والنوع

الأطفال، وميولهم وغرائزهم؛ ولا تفهم ما يلائمهم وما لا يلائمهم، فكانت تُرهقه وتخشو ذهنه بمختلف العلوم من بدء اليوم حتى نهايته. فأخذ يئن من كثرة الدروس التي لم يستطع لها فهماً، ولم يذق لها طعماً. وبدأ يشكو الصداع وضعف الرجلين. ورجع إلى ما كان عليه من تحول الجسم، وشحوب الوجه. وصار كرجل هريم حطمه الدهر، وأفناه الزمن، وامتدت إليه يد البلى. إزاء ذلك لم يجد الناس بدءاً من دعائه باسم «الرجل الهرم» بحسب ما تراءى لهم، مع رقة معاملته، واحترامه الصغير والكبير، وإحسانه إلى الغني والفقير، وعطفه على الطير والحیوان، بما قرب إليه الأنفس، وحبب فيه الأرواح، فرئت لحاله، وبكت سوء مآله.

لم يقف أمر صاحب المدرسة عند هذه الغاية؛ بل أوصى ابنته «كورنليا» أن تبذل جهودها في حشو عقله بكل ما يستطيع من مواد، طارحاً العناية بجسمه ومراعاة سنه وراءه ظهرياً. فعملت بوصية أبيها، ولم تقصّر في تحقيق رغبته، ولكن «فلورانس» لحظت على أخيها في أثناء عيادته شدة الاضطرار

والضعف من العناء والإجهاد ومواصلة الدرس . فكانت أخته تريح عقله ، وتساعدُه في إعداد واجبه الاسبوعي ؛ ليستعيد نشاطه، ويُقبل على استماع الدرس بفؤادٍ مملوء الغبطة والانشراح .

وقد حدث ذات يوم - بعد انتهاء الدراسة ، وقبل أن تبدأ العطلة بأسبوعين - أن وضع « بول » رأسه المكدود المتعب على فخذ أحد قُرَّائِه ، ولم يتمكن من رفعه ؛ إذ غشيتُه إغماءة أفقدته رُشدَه ، فصبَّ عليه الماء ليُفيق ويرجع إليه صوابه . ولأول وهلة - وقتما أفاق - لحظ أن النافذة مفتوحة ، وأن وجهه وشعره مُبتلان بالماء ، فعرف حقيقة الحال ، ثم رأى « الدكتور بلمبر » والمريف واقفين يُحدقان^(١) بالنظر إليه . وما كاد يفتح عينيه حتى فاجأه « الدكتور » مخاطباً :

« كيف حال صديقي الصغير الآن ؟ »

« إنَّ حالي حسنة يا سيدي ! ولا يسعني إلا أن أقدم لك جزيلاً شكري ، ووافر تثنائي ، على ما أوليتنيهِ من عطف . »
وبعد قليل ظهرت أمامة أرض الحجرة تتحرك ، وبدت

(١) حدق إليه بالنظر تحديقاً : شدد النظر إليه .

الجُذْرانُ كأنَّها تمايلُ رقصًا، ولاحتَ له رأسُ « اللُّكْتور » في
ضعفِ حجمه المعتادِ ، وتردَّدَ صدَى الطَّبِيعَةِ صَفِيرًا في أُذنيه ،
وأظلمتِ الدُّنيا في وجهه ، فقادَهُ رفيقُه الَّذِي أُسْنَدَ إليه رأسُه إلى
غُرْفَةِ نَوْمِهِ ، وساعده في خَلْعِ مَلابِسِهِ برفقٍ ولينٍ ، وأرقدَهُ على
سَرِيرِهِ بِتَوَدَّةٍ . استُدْعِيَ الطَّيِّبُ في الحالِ ، فَأَتَى وَفَخَصَّ عَنْهُ ، ثمَّ
قالَ : « يجبُ أن يُوقَفَ عن استذكارِ دُرُوسِهِ في الوقتِ الحاضرِ . »

وبعدَ بضعَةِ أَيَّامٍ استطاعَ أن ينهَضَ من فراشه ويسيرَ في
حديقةِ المدرِسةِ . وكانَ يَعْجَبُ حينما يجدُ كلَّ مَنْ رآه يتألَّمُ له ،
ويُسْفِقُ عليه ، ويحِبُّه ، ويُحادثُه ، ويسألُ عنه . فقابلَ الجَمِيلَ
بِمثله ، ولاطفَ إِخوانَهُ بِرِقَّةِ المَعهودَةِ ، وبأدبِهِمْ حُبًّا بِحَبِّ ،
وَإِخْلاصًا بِإِخْلاصٍ ، حتى ذلكَ الكلبِ الحَشِينِ الَّذِي عاشَ في
الحديقةِ اعتادَ أن يميحَ عَن (بول) ويُرُورُه ، فيُلاقِي مِنْهُ
إِحْسانًا ورفقًا .

وكانَ مُديرُ المدرِسةِ يُقيمُ كلَّ عامٍ حَفْلاً مَسائِيًّا قبلَ بَدْءِ
الإجازَةِ السَّنْويَةِ لِتلاميذِ مَعهدِهِ ، يَحضُرُهُ جَمعٌ غَفيرٌ مِنَ الناسِ ،
فَرغِبَ (بول) في شَهودِهِ ؛ لِأَنَّ أُخْتَهُ « فُلُورانسَ » سَتكونُ بينَ

الزائراتِ ، لِتَرَى عَطْفَ إِخْوَانِهِ عَلَيْهِ ، وَتَمَلِّقَهُمْ بِهِ . ثُمَّ صَمَّمَ فِي مُغَادِرَةِ الْمَدْرَسَةِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَفْلِ .

وَفِي الْمَسَاءِ تَهَافَّتَ الْمَدْعُوُّونَ عَلَى الْمَكَانِ ، وَمَلَّثُوا صَفُوفَ الْمَقَاعِدِ ، وَاتَّحَى « بُول » نَاحِيَةً ، وَجَلَسَ عَلَى أُرِيكَةٍ مُعْتَزِلًا ، فَهَرَّوَلٌ إِلَيْهِ رُفْقَاؤُهُ يُحْيُونَهُ أَطْيَبَ تَحِيَّةٍ ، وَيُبَادِلُونَهُ حُبًّا خَالِصًا مَبْعُوثُهُ التَّقْدِيرُ وَالْإِعْجَابُ ، وَحَنَانًا كَرِيمًا تُرْجِيهِ الْأَخُوَّةُ الصَّادِقَةُ - وَهُوَ يَرْقُبُ جَمَالَ « فُلُورَانِسَ » وَاحْتِرَامَ إِخْوَانِهِ لَهَا ، وَإِعْجَابَهُمْ بِكَمَالِهَا .

فَلَمَّا أُسْفَرَ الصُّبْحُ ، وَأَجْفَلَتْ ^(١) جُيُوشُ الظَّلَامِ ، خَرَجَتْ الْغَزَالَةُ مِنْ سِتْرِهَا ، تُرْسِلُ شُعَاعَهَا مُنِيرًا أَرْجَاءَ الْبَسِيطَةِ . هُنَالِكَ أَسْرَعَ الطُّلَابُ وَاحْتَشَدُوا عَلَى سُلْمِ الْمَدْرَسَةِ ، يُودِّعُونَ صَدِيقَهُمْ وَأَخْتَهُ ، وَبَوَادِرُ الْأَسْفِ لِقُرْقَتَهُمَا تَبْدُو عَلَى وَجُوهِهِمْ ، وَدَوَافِعُ الْحُزْنِ مَائِلَةٌ فِيمَا يَتَحَدَّثُونَ . فَشَكَرَ لَهُمْ « بُول » جَمِيلَ رِعَايَتِهِمْ ، وَحُسْنَ صَنِيعِهِمْ ، وَسَارَ بَيْنَ تَحِيَّةِ الْأَيْدِي الْمَرْفُوعَةِ ، وَهُوَ يَفْتَحُ بَابَ الْمَرْكَبَةِ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ مُحْيِيًّا إِخْوَانَهُ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَصْحَةِ . فَبَاتَ لَيْلَةً يَطْلُبُ الرَّاحَةَ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّفَرَ

إلى بَيْتِهِ ، وهناك حُمِلَ تَوًّا إِلَى فِرَاشِهِ ، وَسَأَلَ أُخْتَهُ بَعْدَ أَنْ
اسْتَجْمَعَ بَعْضَ قَوَاهِ :

« أُخْتِي ! هَلْ كَانَ أَبِي فِي فِنَاءِ الْبَيْتِ عِنْدَ مَا حُمِلْتُ ؟ »

الأخت — « نَعَمْ يَا عَزِيزِي ! »

بول — « هَلْ بَكَى جِينَا رَأَى وَذَهَبَ إِلَى حُجْرَتِهِ الْخَاصَّةِ ؟ »

فَلَمْ تَسْطِعْ « فُلُورَانْسُ » أَنْ تَمْلِكَ مَا اخْتَقَى فِي نَفْسِهَا مِنْ
شُعُورٍ يَفِيضُ بِالْأَلْمِ الْعَمِيقِ ، وَإِحْسَاسٍ بِالْحُسْرَةِ وَالْكَمَدِ ، لَتُجِيبَهُ ،
وَلَكِنَّهَا طَاطَأَتْ رَأْسَهَا تُحَاوِلُ إِخْفَاءَ وَجْهِهَا وَهِيَ تُقْبَلُهُ قُبَلَاتٍ
حَارَّةً يُقْرَأُ مَعْنَاهَا مِنْ بَيْنِ ثَنِيَّاتِ ثَغْرِهَا .

وَلَمَّا فَارَقَهُ الشُّهَادُ^(١) وَزَارَهُ الْكُرَى^(٢) هَمَسَ : « إِنِّي

لَأُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ أَنَّ أَبِي بَكَى . » وَظَلَّ رَاقِدًا يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ ،

وَهُوَ سَعِيدٌ بِجَالِهِ ، صَبُورٌ عَلَى بَلْوَاهِ ، قَانِعٌ بِرُؤْيَاةِ « فُلُورَانْسِ »

وَالْتَحَدَّثَ مَعَهَا عَنْ أَحْلَامِهِ الَّتِي رَأَاهَا فِي مَنَامِهِ ؛ إِذْ كَانَ يَحْمِلُ

أَحْيَانًا بَأْنَ أَسْعَةَ الشَّمْسِ تَكْسُو مِيَاءَ النَّهْرِ أَبَدًا . وَأَحْيَانًا يَرَى

نَفْسَهُ وَهُوَ يَنْزَهُ فِي زَوْرَقٍ صَغِيرٍ يَسْبِجُ فِي مَاءٍ أَيْضًا مِنْ

اللُّجَيْنِ^(٣) ، وَقَدْ رَسَا عَلَى شَاطِئِ بَعِيدٍ تَعْدَرُ رُؤْيَاهُ ، ثُمَّ شَاهَدَ

(١) الشهاد : الأرق . (٢) الكرى : النعاس . (٣) اللجين : الفضة

الْبَحْرَ يَبْرُقُ فَيَكَادُ يَذْهَبُ سَنَا^(١) بَرْقَهُ بِالْأَبْصَارِ . وَلَا غَرَابَةَ ؛ فَهُوَ
الْآنَ أَقْرَبُ إِلَى الْفَنَاءِ مِنْهُ إِلَى الْبَقَاءِ .

مَرَّتِ الْأَيَّامُ سِرَاعًا وَ « بُول » يَجْدُ فِي خَطْوِهِ إِلَى حَيْثُ
يَنْعَمُ بِرِضْوَانِ رَبِّهِ . وَلَمَّا قَارَبَ النَّفْسَ الْأَخِيرَ انْحَنَى عَلَيْهِ أَبُوهُ
— وَقَدْ أَيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ — يَقُولُ : وَلَدَاهُ ! رَحْمَةً بِأَيِّكَ

الْمَسْكِينِ ! أَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى لِنَشْهَدَ حَالِي ؟

فَارْتَدَّ طَرْفُ الصَّبِيِّ وَقَالَ : « أَبِي ! لَا تَحْزَنْ فَإِنِّي سَعِيدٌ .
أَسْتودِعُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْوَالِدُ الشَّفِيقُ عَلَيَّ ، وَأَوْصِيكَ بِأَخْتِي ،
أَخْتِي الْمَسْكِينَةِ ، أَخْتِي الْوَحِيدَةِ فَلُورَانِسَ . »

ثُمَّ أَخَذَ يُعَالِجُ سَكْرَةَ الْمَوْتِ وَيَتَكَلَّمُ بِصَوْتِ خَافِتٍ :
(فَلَوِي) ! أَخْتِي ! إِنَّ أُمَّي تُشْبِهُكَ ، وَأَنْتِ تُشْبِهِينِي . اقْتَرَبِي
مَنِّي لِأَرَاهَا . « وَجَاءَتْ سَكَّتَ وَلَمْ يَنْبَسْ بَيْنَتْ شَفَةَ ؛ إِذْ صَعِدَتْ
رُوحُهُ إِلَى بَارِئِهَا ، فَدَارَتْ حَوْلَهُ هَالَةً مِنْ نُورِ سَمَاوِيٍّ ،
وَتَوَجَّتْ جَبِينَهُ الْوَصَاءَ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، بَيْنَ دُمُوعِ الْأَبِ الَّذِي
عَلَّقَ عَلَيْهِ الْأَمَالَ كُلَّهَا ، وَبَنَى الْمُسْتَقْبَلَ كُلَّهُ ، وَبَيْنَ نَحِيبِ الْأَخْتِ
الَّتِي وَجَدَتْ فِيهِ خَيْرَ سَلْوَى ، وَأَحْسَنَ عَزَاءٍ لِفَقْدَانِ أُمَّهَا .

(١) السَّنَا : ضَوْءُ الْبَرْقِ .

القِصَّةُ الرَّابِعَةُ

صانعةُ اللَّعْبِ

أو

من الخيال إلى الحقيقة

بين جُدرانِ كُوخِ صغيرٍ ، تَظَلُّهُ سُحُبُ الفقرِ ، فيبدو حالَكَ
اللَّوْنِ ، مُتصدِّعِ البنيانِ ، يَمُتُّ عن حياةِ أهلهِ الذينَ أشقاهم الزمانُ ،
— عاش الصانعُ « كَالِبُ بَهْمَر » مع ابنتهِ العمياءِ « بِرْثَا »
عيشةً ساذجةً ، لا يُعكِّرُ صفوَ حياتِهما أَلَمٌ ، ولا يشوبُ
عيشهما كَدْرٌ . قَنَعَا بما دأبَا في العملِ فيه ، ورضيا بما قَسَمَ اللهُ
لَهُما من رِزْقٍ يسيرٍ ، فأخذَا يصنَعانِ اللَّعْبَ التي تُدرُّ عليهما
القُوَّةَ لشركةِ « جَرَفِ وَتِكَلْتُونِ » .

شَعَرَ الأبُ بِضآلَةِ العيشِ في كُوخِهِ ، وأدركَ ما فيهِ من ذُلِّ
وهوانٍ ، وأحسَّ ما يُقاسِيانه من بوَسِ بَيْسِ^(١) ، فاعتَرتهِ

رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ كَادَتْ تُسَلِّمُهُ إِلَى يَأْسٍ قَاتِلٍ يَعْقِبُهُ سُوءُ الْمَصِيرِ .
ولكن ما لبثَ أَنْ سَكَنَ رُوعُهُ^(١) ، وَهَدَأَ فُؤَادُهُ الْمُتَحِيرُ الْقَلِقُ
خَوْفًا عَلَى تِلْكَ الزَّهْرَةِ النَّاصِرَةِ « بَرْتَنَا » مِنَ الذُّبُولِ ، وَعَلَى
رَبْعَانٍ صِبَاهَا مِنَ النُّحُولِ ، لَوْ عَلِمَتْ مَا يَقَاسِيَانِهِ مِنَ آلَامٍ ،
وَمَا يَجْرَعَانِهِ مِنْ كُثُوسِ السَّقَامِ^(٢) ؛ بَيْتٌ دَاجٍ^(٣) يَلْتَمَسَانِ فِيهِ
الرَّاحَةَ ، لَا يَنْفِذُ إِلَيْهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَشْعَةِ الضَّوءِ ، وَلَا يَهْتَدِي إِلَى
نَوَافِذِهِ إِلَّا قَبَسٌ^(٤) مِنْ نُورٍ ، تَكَادَ تُتَمَسُّ فِيهِ الْجُدْرَانُ فَلَا سَبِيلَ
إِلَى الْوَصُولِ . وَتَطْلُبُ الْأَبْوَابُ فَإِذَا هِيَ صَعْبَةٌ الْمَنَالِ . كَادَتْ
أَسْفَهُ تَهْدِمُ ، وَكُلُّ مَا فِيهِ قَدْ اِمْتَدَّتْ يَدُ الْبَلَى إِلَيْهِ ، وَنَسَجَ
الْعَنْكَبُوتُ خَيْطَهُ عَلَيْهِ ، فَأَصْبَحَ بَالِيًا تَنْصَرِفُ الْأَعْيُنُ عَنْ رُؤْيَتِهِ ؛
لِمَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ وَضَاعَةِ الشَّانِ ، وَحَقَارَةِ الْقَدْرِ .

أَنْفِ الْأَبُ أَنْ تَعْلَمَ ابْنَتُهُ حَقِيقَةَ الْحَالِ ، وَتَتَبَيَّنَ سُوءَ الْمَالِ ،
فَهْدَاهُ الْخِيَالُ أَنْ يُصَوِّرَ لَهَا الْعَيْشَ فِي بَيْتِ أَنْيَقٍ ، مُحِيطٍ بِهِ
الْأَشْجَارُ الْوَارِفَةُ^(٥) الظَّلِيلَةَ ، وَيَحْوِي أَنْفَرَ الْأُنَاثِ ، وَأَحْسَنَ
الرِّيَاشِ ، يَطِيبُ الْمَقَامُ فِي حُجْرَاتِهِ ، وَتَلْدُّ الْحَيَاةُ بَيْنَ جَنَابَاتِهِ ،

(١) الروع بالضم : القلب والعقل ، وبالفتح الفزع (٢) المرض (٣) مظلم

(٤) القبس : بفتحين شعلة من نار يقبسها الشخص . (٥) الكثرة الظل .

قد زُيِّنَتْ غُرْفُهُ بِتَذَكِّراتٍ تُخَدِّمُهُ السَّيِّدِ « تَكَلِّتُونَ » الذي
صَوَّرَهُ الأبُّ لها بأنه رَحِيمُ القلبِ ، شَفِيقُ الفُؤَادِ ، جَمِيلُ
المُحَيَّا^(١) ، حَسَنُ القَوَامِ^(٢) ، عَفِيفُ النَفْسِ ، رَقِيقُ العاطِفَةِ
والوَجِدَانِ ، نَبِيلُ الإِحْساسِ والشُّعُورِ ، كَرِيمُ الأَخْلاقِ والطَّبَّاعِ .
ولم يَقِفْ به التَّصَوُّيرُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ ، بل انْتزَع من شَخْصِيهِ
رَجُلًا قَوِيَّ الجِسْمِ ، سَلِيمَ البَنِيَةِ ، مُكْتَمِلَ الصِّحَّةِ ، قَادِرًا على
أداء ما يُعْهَدُ به إليه من أَعْمَالٍ ، وَيُكَلِّفُهُ من وَاجِبَاتٍ ، عَلَيَّ
الرَّغْمِ مِمَّا كانَ فِيهِ من شَيْخوخَةٍ بالِنَعَةِ ، أَيْضًا لها شَعْرُ رَأْسِهِ ،
وتَقَوُّسَ ظَهْرِهِ ، وَاُنْحَنَتْ ضُلُوعُهُ ، وَاُنْبَرَتْ عِظَامُهُ ، حَتَّى أَصْبَحَ
هَيْكَلًا بلا رُوحٍ ، وَجَسَدًا بلا عَظْمٍ ، وَنَفْسًا تَنوِّءُ بالأَرْزَاءِ^(٣) ، وَقَلْبًا
مُقَطَّعَ النِّيَابِطِ^(٤) . وَفَضْلًا عَمَّا عَانَاهُ من قَسْوَةِ الرِّجْلِ الذي
يَعْمَلُ عِنْدَهُ - فَقَدَ قُدَّ قَلْبُهُ من صَخْرٍ جُلْمُودٍ ، لا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ ،
وَالرَّحْمَةُ لا تَعْرِفُهُ ؛ يُحْمَلُهُ ما لا يُطِيقُ ، وَيُثْقَلُ كاهِلُهُ بما لا يُسْتَطاعُ -
أورثَهُ الهَمَّ والنَّعْمَ ، وَالضَّجَرَ والمَلَلَ . تَراهُ مُقَطَّبَ الوَجْهِ ،
يَفْتَرُ^(٥) تُفْرَهُ عن بَسْمَةِ الحِزْنِ الأَلِيمِ ، وَالشَّجَنِ^(٦) الدَّفِينِ .

(١) الوجه (٢) القامة (٣) المصائب . (٤) النِّيَابِطُ : عِرْقٌ متصل بالقلب
من الوتين إذا قُطِعَ مات صاحبه (٥) افتقر : ضحك ضعيفًا حسنًا . (٦) الحزن .

ولكنه في سبيلِ إِسعادِ ابنته الوَحيدةِ ، وإدخالِ الشُّرورِ إلى رُوعِها^(١) ، كي لا تسكنَ إلى هواجسِ أفكارِها ، وشواردِ عقليها تكلفَ أن يُصوِّرَ لها حياتَه بصورةِ خياليَّةٍ ؛ رَحمةً بها ، وإشفاقاً عليها ؛ لتشعرَ بالسعادةِ النَّفسيَّةِ ، واللذَّةِ الرُّوحيةِ .

كان الأبُّ يبذلُ غايةَ جُهدِهِ ، ويدفَعُه حُبُّه لابنته - منذ نعومةِ أظفارِها - أن يحملَ حياتَها سعيدةً ، بعيدةً عن مواطنِ الكدرِ ، ومنازلِ الألمِ ، حتى لا تحزنَ لِذهابِ بصرِها ، وفُقدانِ نورِ الحياةِ الوضاءِ من عَينيها ، في ذلكِ الوجهِ الذي تشعُّ منه آياتُ الجمالِ ، وعلاماتُ الذكاءِ . وقد بلغَ مأمولَه ، وحققَ قصدَه ؛ فلمست ابنته الغبطةَ عن كُتبِ^(٢) ، وأحسَّتِ الهناءةَ تحومُ حولَها ؛ إذ كانت ترى كلَّ شَيْءٍ في الوجودِ بعيني أبيها ، اللتين كانتا تُصوِّرانِ الظلامَ نُوراً ، والشقاءَ سعادةً ، والفقرَ غنى .

وذاَتَ يومٍ كانت « برثا » مشغولةً بعملِ ملابسِ اللُّعبِ في حُجرةِ الجلوسِ التي ظهرت كصنِّيعٍ ، زِينتُ جُدرانَه برفوفٍ صُفَّتَ عليها صناديقُ مملوءةٌ باللُّعبِ من كلِّ حجْمٍ وصنِّيفٍ ، على

مراتب مُتَبَايِنَةٍ فِي الْقَدْرِ ، مِنْهَا مَا يَصْلُحُ لِأَبْنَاءِ الْعَامَّةِ ، وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ أَبْنَاءَ الْخَاصَّةِ . وَأَمَامَ الْفَتَاةِ خِوَانٌ عَلَيْهِ قِطْعٌ مِنْ النَّسِيجِ الْمُلَوَّنِ ، تَصْنَعُ مِنْهَا مَلَابِسَ الدُّمِيِّ (١) ، وَحَوْلَهَا أَكْوَامٌ مَنْشُورَةٌ ، مِنْ سُنْفُنٍ وَعَجَلَاتٍ ، وَأُخْصِنَةٌ وَطُبُولٍ ، فِي حِينِ أَنْ أَبَاهَا قَدْ وَقَفَ بِالْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْخِوَانِ ، يُلَوِّنُ بَرِيشَةَ الرَّسْمِ صِنَادِيقَ اللَّعْبِ - فَقَالَتْ : « أَبِي ! إِنَّكَ خَرَجْتَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ بِمِعْطَفِكَ الْجَمِيلِ الْجَدِيدِ . »

فَأَجَابَ أَبُوهَا ، وَقَدْ نَظَرَ - وَالْأَسْفُ يُعْمَلُ قَلْبُهُ - إِلَى مِعْطَفٍ مِنَ الْخَيْشِ مُعَلَّقٍ لِتَجْفِيفِهِ - : « نَعَمْ ؛ قَدْ خَرَجْتَ بِمِعْطَفِي الْجَمِيلِ الْجَدِيدِ . »
الابنة : « مَا أَشَدَّ سُرُورِي بِبِشْرَائِكَ إِيَّاهُ يَا أَبِي ! »

الأب : « وَلَقَدْ خَاطَبْتُهُ لِي يَدٌ حَازِقَةٌ ، وَيَكْبُرُ عَلَيَّ وَمِثْلِي أَنْ يَسْتَحِقَّهُ . »

عند ما سَمِعَتِ الْفَتَاةُ الْوَقِيَّةَ قَوْلَ أَبِيهَا ، صَاحَتْ بِصَوْتِ يَنْمُ عَنْ الْعَجَبِ - وَقَدْ افْتَرَّ (٢) فُوهَا عَنْ ابْتِسَامَةٍ عَذْبَةٍ

(١) جمع دُمِيَّة . وَهِيَ الصُّورَةُ مِنَ الْعَاجِ وَغَيْرِهِ ، أَوْ الثِّيَابُ الَّتِي فِيهَا التَّصَاوِيرُ وَهُوَ الْمُرَادُ (٢) ضَحِكَ ضِحْكًا حَسَنًا .

رقيقة - وهي تُصَفَّقُ بيديها : « أهو جميلٌ لا تستحقه ؟ أهناك
شيءٌ يَعْظُمُ على أبي الباسمِ الوجهِ ، الأسودِ الشعرِ ، الجميلِ المَحْيَا ^(١) ؟
أيمكنُ أن يكونَ في الحياةِ شيءٌ جميلٌ ليسَ أبي أهلاً له ؟ »

دارَ هذا الحديثُ بينَ الأبِ وابنته « برثنا » التي تخال ^(٢) أن
السعادةَ قد أظلمتْ سماءَ حياتهما ، وما كانت تعلمُ أن تلك
السعادةَ من نسجِ الخيالِ أو الوهمِ الذي تكلفه والدها . ولو
استطاعت المسكينةُ أن تراه - وقد حطمه الدهرُ ، وأحناه الزمنُ -
بظهره المَقْوَسِ ، ووجهه العابسِ ، دائباً في عمَلِه ، والعرقُ يسيلُ
على جبينه من كثرةِ الكدِّ والجهدِ ، يُخرجُ زفراتِ الحسرةِ
وتأوهاتِ الندمِ المُحرقةِ - لأثرَ هذا المنظرِ في نفسها تأثيراً
تدمعُ له عيناها ، وتقطعُ أوصالُ فؤادها ، فتخرُجُ مغشياً عليها من
هولِ تلك الصدمةِ العنيفةِ ، رحمةً بالأبِ المسكينِ وحناناً .

أخذَ الأبُ « كَابُ » يُؤدِّي عملهَ بهمةٍ ونشاطٍ ، ورغِبَ
في أن يُسرِّيَ عن نفسه بعضَ ما ألمَّ به من شجنٍ ^(٣) ، وما رزح ^(٤)
فيه من نصَبٍ وعناءٍ ، فبدأ يُغني حوَلَ طائرٍ من الطيورِ ، ولكن

(١) الوجه (٢) تظن (٣) حزن . (٤) رزحت الناقة : سقطت إعياء .

ضَعْفَهُ ، وما كَانَ يُبْلِقِيهِ مِنْ سُوءِ الْعَيْشِ وَشَقْوَةِ^(١) الْحَيَاةِ ، كُلُّ ذَلِكَ بَدَأَ بَيْنَ نَبْرَاتِ صَوْتِهِ جَلِيًّا ، فَارْتَجَفَتْ نَفْسَاتُهُ ، وَاضْطَرَبَتْ إِيقَاعَاتُهُ ، وَاهْتَزَّتْ عَضَلَاتُ لِسَانِهِ ، وَكَادَ صَوْتُهُ يُتَلَاشَى .

وَعَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ، دَخَلَ الْمَخْدُومُ « تَكَلْتُونَ » لِيُشْرِفَ عَلَى الْعَمَلِ ، فَرَاعَتْهُ تِلْكَ الْحَالُ ، وَخَاطَبَتْهُ بِصَوْتٍ مُزَعِجٍ غَاضِبٍ : « حَذَارِ يَا (كَالِبُ) أَنْ تَعْمَلَ وَتُنْفَى ؛ فَإِنَّ الْغِنَاءَ مُلْهُ عَنِ الْعَمَلِ ، مَضْمِينَةٌ لِلزَّمَنِ . حَذَارِ أَنْ أُرَاكَ ثَانِيَةً تُعْنَى وَقْتَ الْعَمَلِ . » فَهَمَسَ « الْأَبُ » فِي أُذُنِ « بَرْتَا » حَتَّى لَا تَتَأَثَّرَ بِذَلِكَ الْخَطَابِ الْقَاسِي : « إِنَّكَ لَا تَرِينَ كَيْفَ يَنْظُرُ السَّيِّدُ إِلَى بَعِينِيهِ مَارِحًا ، مُدْعِيًا أَنَّهُ يُوجِبُنِي . »

فَضَحِكْتَ الْفَتَاةُ ، وَأَوْمَأَتْ إِلَى أَبِيهَا مُصَدِّقَةً مَا قَالَ ، وَقَدْ أَخَذَتْ يَدَ « تَكَلْتُونَ » وَهُوَ نَافِرٌ مِنْ إِعْطَائِهَا إِيَّاهَا ، وَقَبَّلَتْهَا بِلُطْفٍ ، فَانْتَزَعَهَا مِنْهَا بِغِلْظَةٍ وَقَالَ مُتَذَمِّرًا : « مَاذَا يَفْعَلُ الْمُعْتَوُّ (كَالِبُ) ؟ »

فَظَنَّتْ « بَرْتَا » أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَمَزُحُ وَقَالَتْ : « أَشْكُرُكَ

(١) الشَّقَا ، وَالشَّقَاءُ وَالشَّقْوَةُ وَالشَّقْفَةُ : الشَّدَّةُ وَالْعُسْرُ .

يا سيدي على شجرة الورد التي تفضلت بإهدائها إلي .
وكان أبوها قد اشتراها لها بما اقتصدته من دراهمه الممدودة ،
وجعلها تعتقد خطأ أنها هدية من « تكاتون »
تاجر اللب .

ولم تكذ تنهي من كلامها حتى بادرها^(١) السيد متسائلا :
ماذا تريدن أيتها الحمقاء ؟ « فلم تُجِرْ جواباً . وللحال أمر
« كالب » بأداء بعض الأعمال مع قسوة في المعاملة ، خالية من
الجمالة ، وخرج دون أن يودع أحداً .

أوصد الباب بمد خروج « تكاتون » وأصبح الأب
في جو حر طليق ، فلم يجد مناصاً^(٢) من التحدث إلى فتاته ،
ليزيل ما عساه أن يكون قد علق^(٣) بذهنها من الخواطر
والهواجس ، حتى لا تبدو الحياة أمامها مرة قاسية ، وحتى لا ينهار
ذلك الصرخ^(٤) الذي شيده لها من السعادة الخيالية .

فقال وقد مال برأسه إليها : « لورأيتك يا (برثة) وهو ينمطف
إلى بعينيه مازحاً لأذركت أنه يتظاهر بالعرف ، ويدعي خشونة
المعاملة ، ليفر من حمد الناس وثنائهم . »

(١) عاجلها (٢) مفراً ، ملجأ . (٣) تعلق . (٤) القصر ، وكل بناء عال

فقلت : « إن طبعه كذلك يا أبتاه ! خلقه قويم^١، وأصله كريم^٢؛ إذ يأتي أن يشكره إنسان على هداياه ؛ فهو ملك يمزح ليسرني كلما أتانا . »

ولقد حفز الأب إلى خداع ابنته ومُهجة حياته على هذا النحو، من تصوير الباطل لها حقاً، والخيال حقيقةً - ما يَكِنُّهُ لها من حُبِّ طاهرٍ، وما يختلج بين جوانحه من حنوٍ وإشفاق على رُوحها الطاهرة ، ونفسها البريئة . فقد مثَّل لها مخدومه « تِكْتُون » بريشة رسَّامٍ ماهرٍ ، مُفْتَن^(١) في صناعته ، بارِع في فنِّه - في صورة رجلٍ نبيلٍ ، طيب القلب ، عظيم المروءة ، مُحِبِّ « لبرثنا » . فهامت به حُبًّا ، وكانت سعيدةً بعقيدتها ؛ ولكن لم تدعها الأيامُ ترعى ثمارَ بذرها^(٢) ، وتهدأ بفرسِ يديها ، بل صوّبت إليها رِمَاحَ قسيِّها النافذة ، فأصابت الغرضَ ، ونالت الهدفَ ، وتركتها رهينة الآلام ، سَجِينَةَ الخواطرِ ، تَصَلِّي^(٣) سَمِيرَ الهوى الغادرِ ، إذ أُخبرت ذاتَ يومٍ بأنَّ مالكَ رُوحها ، وآسِرَ لُبِّها^(٤) تزوج ، فلمَ تَسْطِعْ أن

(١) افتن في صناعته : جاء بالأفانين (٢) زرعا .

(٣) تصلَّى : تحترق (٤) عقلها

تُخْفِي عَنْ أَبِيهَا مَا أَثَارَ رَوْعَهَا^(١) مِنْ شَجَنِ^(٢) مُلِمٍّ ، وَحَزَنِ كَثِيرٍ ،
حِينَمَا سَمِعَتْ نَبَأَ قَرَانِهِ .

فَهَمَّ الْأَبُ الْحَقِيقَةَ ، وَعَرَفَ مَا وَقَعَتْ فِيهِ فَنَاتُهُ ، فَصَاحَ
وَهُوَ يَتْنُ مِنْ وَخْزِ^(٣) الضَّمِيرِ : « يَا لَلسَّمَاءِ ! هَلْ خَدَعْتُكَ يَا « بَرْتَا »
مَدَى عُمْرِكَ لَا كَسِرَ قَلْبِكَ فِي النَّهَائَةِ ؟ » ثُمَّ أَخَذَ يُعَنَّفُ نَفْسَهُ
عَلَى مَا أَرْتَكِبُهُ مِنْ خَطَأٍ كَبِيرٍ ، وَاقْتَرَفَ مِنْ إِثْمٍ عَظِيمٍ ،
بَاحِثًا عَمَّا يُكْفَرُ بِهِ عَنْ جَنَائِثِهِ الْعَظْمَى ، وَيُزِيلُ عَنْ ابْنَتِهِ
شَبْحَ سَقَامِهَا^(٤) الْمَجْسَمِ .

وَأخِيرًا لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الْاعْتِرَافِ بِالْوَاقِعِ فَقَالَ :

« عَزِيزَتِي بَرْتَا ! إِنْ لَدَيْ نَبَأٍ يَجِبُ أَنْ أُبَوِّحَ^(٥) لَكَ بِهِ .

هُنَاكَ شَيْءٌ فِي نَفْسِي لَا بُدَّ أَنْ أُسِرَّهُ إِلَيْكَ ، فَأَضَعْنِي إِلَى

وَأَعِيرْنِي سَمْعَكَ ، وَلَا تَظْنِنِي قَاسِيًا عَلَيْكَ . »

فَتَوَجَّهَتْ نَحْوَهُ « بَرْتَا » قَائِلَةً : « أَلْأَصْدَقُ أَنَّكَ تَقْسُو

عَلَى يَا أَبِي ؟ »

الْأَبُ : « إِنْ لَا أَقْصِدُ ذَلِكَ يَا ابْنَتِي الْعَزِيزَةَ ! وَمَا خَطَرَ لِي

(١) فرعها (٢) حزن (٣) تأنيب (٤) السقام: المرض . (٥) أظهره .

أَنْ يُخَالَجَكَ مِثْلُ هَذَا الظَّنِّ . ابْنَتِي الْمِسْكِينَةَ ! إِنَّ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ
وَتَقَّتْ بِهِمَا قَدْ غَشَّتَاكَ . إِنَّ الْعَالَمَ الَّذِي صَوَّرْتَهُ لَكَ لِتَعِيشِي
مُنْعَمَةً بِلَذَاذَةِ الْعَيْشِ فِيهِ ، سَعِيدَةً هَانِئَةً — لَا وُجُودَ لَهُ . لَقَدْ
كُنْتُمْ عَنْكَ مَا يَثْلُمُ^(١) عَوَاطِفَكَ ، وَأُظْهِرْتُ لَكَ مَا تَقْرَأُ بِهِ
عَيْنِكَ ، وَيَبْمَعُ فِيكَ الْأَمَلَ . وَأَخْرَجْتُكَ مِنْ عَالَمِ الْحَقِيقَةِ إِلَى
عَالَمِ الْخَيَالِ الْوَاهِي . وَجَعَلْتُ الْبَيْتَةَ الَّتِي تَحِيطُ بِكَ بَيْتَةً
خَيَالِيَّةً بَعِيدَةً عَنِ الْوَاقِعِ .

برّنا : « ولكنّ الأحياء من الناس ليسوا بخيالات ، وليس
في استطاعتك أن تتناوّلهم بالتبديل . »

الأب : « لقد فعلت ذلك يا برّنا ! وانخدعت بخيالاتي
الكاذبة ، فاصفح عني وسامحيني إن الرّجل الذي يُحتفلُ بزواجه
اليوم ، ليس من وصفته لك بالأمس . إنه قاسى القلب ، لا يتألم
لأحد ، ولا يحزن لأحد . إنه نافر الطبع ، غليظ القول ،
سئيّ المعاملة ، لا يجزع لإخوانه ، ولا يُشاطرهم مصابهم .
لا يعرف الشفقة ، والشفقة لا تعرفه . »

برئنا : « يَا لَهِ ! مَا أَعْظَمَ مَا رُزِئْتُ بِهِ مِنْ فَقْدِ الْبَصَرِ !
كَيْفَ تَخْدَعُنِي يَا أَبِي ! وَأَنَا عَاجِزَةٌ لَا عَوْنَ لِي وَلَا نَاصِرَ ؟ »
فَطَاطَأَ « الْأَبُ » الْمَسْكِينُ رَأْسَهُ نَحْوَ الْأَرْضِ أَسْفَا . ثُمَّ
سَأَلَتْهُ ابْنَتُهُ أَنْ يَصِفَ لَهَا بَيْتَهَا ، فَقَالَ : « إِنَّهُ مُتَوَاضِعٌ تَبَدُّو عَلَيْهِ
سِيماً ^(١) الْفَاقَةِ ، وَدَلَائِلُ الْمَوَانِ وَالضَّرَاعَةِ ^(٢) ، فَهُوَ عَشُّ الْحِرْمَانِ
وَالْخِصَاصَةِ ^(٣) ، ذُو حُجْرٍ مُقْفِرَةٍ ، وَسُقْفٍ مُنْهَارَةٍ ^(٤) ، وَعَمْدٍ ^(٥)
خَاوِيَةٍ ، بَالٍ كَعِطْفِي الْخَيْشِيِّ . » ثُمَّ أَلْحَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَكْشِفَ
عَنْ سِرِّ الْهَدَايَا الَّتِي قُدِّمَتْ إِلَيْهَا فَأَحْبَبَهَا . فَلَمْ يُجِبْ رَغْبَتَهَا ،
فَعَرَفَتْ أَنَّهُ اشْتَرَاهَا مِنْ نَقُودِهِ الَّتِي اقْتَصَدَهَا مِنْ قُوْتِهِ ،
وَقَالَتْ : « الْآنَ أَنْظِرْ إِلَيْكَ أَيُّهَا الْوَالِدُ الشَّفِيقُ ! فَصِفْ لِي
نَفْسَكَ ، وَأَيَّ شَيْءٍ تُشْبِهُهُ ؟ »

الأبُ : « إِنَّنِي هَرِمٌ يَا بِنْتِي ! نَحِيفُ الْجَنِيمِ ، مُقْوَسُ الظُّهْرِ ،
مَنْهوكُ الْقُوَى ، مُخَادِعُ أَحْمَقٍ ، قَدْ وَخَطَنِي ^(٦) الشَّيْبُ ، وَعَلَانِي
الْهَمُّ ، وَافْتَرَسْتَنِي حَوَادِثُ الدَّهْرِ ، وَمَحَنُ الْأَيَّامِ ، وَتَتَابَعْتُ عَلَى
صُرُوفِ الزَّمَانِ كَقِطْعِ اللَّيْلِ ، فَأَكَلَتْ مِنِّي الْأَخْضَرَ وَالْيَابِسَ .

(١) علامة . (٢) الدال . (٣) الفقر . (٤) مهذمة .

(٥) عمد ، عمد : جمع عمود . (٦) خالطني

فَجِئْتِ^(١) الفَتَاةُ أَمَامَ أَبِيهَا ، وَأَدَارَتْ ذِرَاعَيْهَا حَوْلَهُ تَبْكِي
وَتَقُولُ : « لَقَدْ عَادَتْ إِلَى بَصِيرَتِي ، وَرَجَعَ إِلَى نَظْرِي ، وَأَرَى
الآنَ أَبِي حَقًّا إِنِّي لَمْ أَرَ أَبِي حَقًّا إِلَّا الآنَ . هَلْ يَظُنُّ أَحَدٌ أَنْ
عَلَى وَجْهِهِ البَسِيطَةَ أَبَا شُجَاعًا أَحِبُّهُ كُلَّ الحُبِّ ، وَأَنِّي لَهُ كُلُّ الوَفَاءِ ،
كَذَلِكَ الشَّيخِ الوَاهِنِ الأَبْيَضِ الشَّعْرِ ؟ أَيْ ! لَنْ أُنْسَى فِي أَدْعِيَتِي
وَتَبْتُلِي ، وَصَلَاتِي ، وَتَشْكُرَاتِي لِلَّهِ — شَعْرَةٌ بِيضَاءٍ مِنْ رَأْسِكَ . »
فَانْحَدَرَتْ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَسَالَتْ عَلَى وَجْنَتَيْهِ وَقَالَ :
« ابْنَتِي ! إِنَّ أَبَاكَ لَا يَسْتَحِقُّ عَطْفَكَ بَعْدَ أَنْ خَدَعَكَ عَنْ حَسَنِ
نِيَّةٍ ، وَسَلَامَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَأَذْهَبَ سَعَادَتِكَ النَّفْسِيَّةَ . »

بِرْهَانًا : « أَبَتَاهُ ! وَارْتَمَاهُ لِفِقَاتِكَ ! فَإِنَّكَ لَمْ تَذْهَبِ
بِسَعَادَتِي يَا أَعَزَّ الآبَاءِ . وَكُلُّ مَا أُبْتَغِيهِ قَدْ تَحَقَّقَ لِي فِي
أَبْوَتِكَ . كُنْتُ سَعِيدَةً قَانِمَةً فِيمَا مَضَى ، وَلَكِنِّي الآنَ أَكْثَرُ
سَعَادَةً وَقِنَاعَةً ؛ فَقَدْ عَرَفْتُكَ حَقَّ المَعْرِفَةِ ، وَقَدَّرْتُكَ حَقَّ
التَّقْدِيرِ . وَرَأَيْتُ العَالِمَ كَمَا هُوَ ، وَالحَيَاةَ كَمَا هِيَ . فَلَسْتُ
بِعَمِيَاءَ بَعْدَ اليَوْمِ . »

القِصَّةُ الْجَامِسَةُ

« الْمَرْكَبُ كَيْونِس »

أو

الْخَادِمُ الْمَسْكِينُ

عاش السيدُ « سَمْسُونُ بُرَّاسُ » المحامى مع أختٍ له جُبلت على
الفظاظَةِ والقِسْوَةِ تُدعى الآنسة « سَالِي بُرَّاس ». وكان على النقيض
منها كاتبٌ أخيها السيدُ « دِكْ سُوَيْثَلَر » ؛ فهو مَرِحٌ خفيفُ الروحِ ،
متواضعٌ لا يُحِبُّ الظهور . ولقد وَقَفَ في صباحِ اليومِ الأولِ
من عمله مع المحامى على كثيرٍ مما انطَوَّت عليه نفسُ أخته ؛
إذ أَخَذَتْهُ بِالْعِلْظَةِ وَعَسَفَتْ^(١) به ، وَضَيَّقَتْ الخِناقَ^(٢) عليه ، فأخَذَ
يبتهرُ الفرصَةَ للخلاصِ منها . وما كادت تَعَادِرُ المَكْتَبَ حتى
أحسَّ زوالَ الرقَابَةِ عنه ، وانطلقَ يُزِيلُ عن نفسه الهمَّ ؛ فقَفَزَ
من كُرْسِيِّه ، وأخَذَ يَغْنَى في فِنَاءِ الحِجْرَةِ . وبينما هو غارقٌ في
سروره إذ سَمِعَ دَقًّا خفيفًا خارجَ الحِجْرَةِ أعقبه دَقٌّ هادئٌ على

(١) ظلمته (٢) الخناق : حبل يفتق به

بابِ حِجْرَةِ الْمَكْتَبِ فَقَالَ : « ادخُل » . فَتَكَلَّمَ الطَّارِقُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ ^(١) هَادِيٍّ : « أَتَسْمَعُ يَا سَيِّدِي بِأَنَّ تَجِيءَ لِتُرَى الْحُجْرَةَ مِنْ يَرِيدُونَ الشُّكْنَى ؟ »

رَفَعَ (الكَاتِبُ) رَأْسَهُ فَإِذَا أَمَامَهُ فِتَاةٌ هَزِيلَةٌ الْجِسْمِ ، تَرْتَدِي ^(٢) مِيدَعَةً ^(٣) خَشِنَةً قَدِيرَةً ، قَدْ أَسْدَلَتْ عَلَى رَأْسِهَا غِطَاءً ظَهَرَ مِنْهُ وَجْهُهَا وَيَدَاهَا . نَخَاطِبُهَا قَائِلًا : « لِمَاذَا ؟ وَمَنْ أَنْتِ ؟ » فَلَمْ تُجِرِ الْفِتَاةُ جَوَابًا إِلَّا أَنَّهَا قَالَتْ : « أَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي أَنْ تَأْتِيَ لِتُرَى الْغُرْفَةَ السَّاكِنِينَ الْجُدُدَ . »

قَالَ (الكَاتِبُ) : « إِنَّهُ لَأَصْلَةٌ لِي بِالْحُجْرَةِ ، أَخْبَرِيهِمْ بِالْحُضُورِ ثَانِيَةً فِي وَقْتٍ آخَرَ . » فَقَالَتْ : « أَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي أَنْ تَقُومَ بِمَا عَرَضْتُ عَلَيْكَ ؛ لِأَنَّ الْآنَسَةَ (سَالِي) لَمْ تَشَأْ أَنْ أَقَابِلَهُمْ ؛ لِثَلَاثَةِ يَجِدُوا فِي صِغْرِي مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِعَدَمِ الْعِنَايَةِ بِهِمْ ، وَالْقِيَامِ بِخِدْمَتِهِمْ خَيْرَ قِيَامٍ . »

فَقَالَ (الكَاتِبُ) وَهُوَ مُتَذَمَّرٌ ^(٤) وَأَمَارَاتُ الْغَضَبِ بَادِيَةٌ ^(٥) عَلَى وَجْهِهِ : « هَذَا شَيْءٌ غَرِيبٌ . أَتُرِيدِينَ أَنْ تَقُولِي إِنَّكَ الْقَائِمَةُ بِأَمْرِ الْخِدْمَةِ فِي الْمَنْزِلِ ؟ » ثُمَّ ذَهَبَ مِنْ فَوْرِهِ وَأَرَى الْغُرْفَةَ السَّاكِنِينَ .

(١) منخفض (٢) تلبس (٣) ثوب العمل (٤) مستاء (٥) ظاهرة

عاد الكاتبُ إلى مكتبه ، وقد تألمَ لتلك الخادمِ الصغيرةِ المسكينةِ ؛ إذ كانت تعيشُ عيشةَ البؤسِ والشقاءِ ، في سردابٍ مظلمٍ تحتَ الأرضِ ، ولا يتسنى^(١) لها الخروجُ إلا تلبيةً لنداءِ أجراسِ القاطنينِ^(٢) ، فما خرجتْ للتنزهِ مطلقاً ، وما خلعتْ ميدعتها الحشنةَ ، وما رأتها الشمسُ إلا مراتٍ معدودةً ، وما أتيح^(٣) لها أن تمكثَ في الهواءِ المنعشِ إلا قليلاً ، ولم تُواتها الفرصةُ لتركنَ إلى الراحةِ ، ولم يأتِ أحدٌ للاستفسارِ^(٤) عنها أو الاستئناسِ بها ؛ لأنها لا تعرفُ أحداً ، ولا يفكرُ فيها أحدٌ .

وذاتَ يومٍ قال الكاتبُ لنفسه : « إني مُستعدٌّ لأن أمنح^(٥) مكافأةً عظيمةً من يدلُّني على مسكنِ هذه الخادمِ المسكينةِ ويخبرُني كيف تُعاملُ ، وكيف تعيشُ . » وبينما هو غارقٌ في آمالهِ إذ حانتَ منه التفاتةٌ فذهبَ إلى بابِ المكتبِ ففتحه ، وإذا الآنسةُ (سالي) هابطةٌ إلى المطبخِ في سردابِ^(٦) تحتَ الأرضِ فقال : « واعجباً ! إنها ذاهبةٌ لإطعامِ الخادمِ الجائعةِ . » وبمدآنِ اخترقتِ الآنسةُ (سالي) حُجُبَ الظلامِ ، وتوارت^(٧) عن الأنظارِ

(١) يتيسر (٢) الساكنين (٣) فُدِّر (٤) السؤال

(٥) أعطى (٦) السرداب : بناء تحت الأرض للصيف (مغرب) (٧) اخفت

خَفَّ (الكاتبُ) إلى السُّلَمِ واقْتَفَى آثارَهَا حتى وَصَلَ إلى بابِ
المطبخِ الخَلْفِيِّ، بعد أن دَخَلَتْهُ الأَنَسَةُ (سَالِي) وقد حَمَلَتْ في يدها
نَحْدًا من لَحْمِ الضَّانِ .

كان هذا المطبخُ مُنخَفِضًا جدًّا قد ضَرَبَت الرطوبةُ في أنْحَائِهِ،
وانتَشَرَت الظُّلْمَةُ في نواحيه، وَخَيَّمَ البُؤْسُ والشقاءُ عليه، وكانتُ
فيه قِطْعَةٌ نَحِيفَةٌ يبدو عليها الجوعُ، تلمَسُ ما يتساقطُ على الأرضِ
بشَرٍّ شديدٍ، وكان كلُّ ما في المطبخِ مُحَكَّمِ الإغلاقِ حتى لا يتسَنَّى
لأحدٍ الوصولُ إلى شيءٍ منه، ولا يستطيعُ كَأَنَّهُ من هَوَامِّ الأرضِ
أن يعمِشَ فيه؛ لأنه لا يجدُ ما يستطيعُ به الحياةَ .

وقَفَّت الخادِمُ أمامَ سَيِّدَتِهَا مَوْقِفَ الخنوعِ والذَلَّةِ، وانْحَنَتْ
نحوَ الأرضِ . فقالت الأَنَسَةُ (سَالِي): « هل أنتِ هنا؟ »

فأجابَت الخادِمُ بصوتٍ ضعيفٍ: « نعم يا سيِّدتي ! »
فقالت: « لا تقربِي نَحْدَ الضَّانِ؛ فَإِنِّي أخشى أن تلتقِميها . »
فانزوتُ^(١) الخادِمُ المسكينةُ في جانبٍ من المطبخِ .

أخْرَجَت الأَنَسَةُ (سَالِي) مِفْطاحًا من جَبِيها، وأخْرَجَت بعضًا

من البطاطس الباردة التي لا تؤكل، وقالت: « أترين هذه البطاطس؟ خذيها. » ثم قطعت لها قطعتين صغيرتين من اللحم البارد، وأمسكتهما بالشوكة، وأعطتهما إياها، وقالت لها: « لعلك لا تذهبين إلى أحد ثم تدعين أنك لا تجدين هنا لحمًا؛ فهذا هو اللحم فتناوليهِ »

فنظرت إليها الخادم الصغيرة بعينين ملوئهما الجوع، ثم انقضت على الطعام فالتقمته في أقل من ارتداد الطرف^(١).

قالت الأنسة (سالي): « أتردين شيئًا أكثر من هذا؟ » فأجابت - والجوع قد أخذ منها مأخذه، فلم تستطع الكلام إلا همسًا: « لا ياسيدتي . »

وضعت الأنسة (سالي) اللحم في الخزانة وأحكمت إغلاقها، ثم اقتربت من الخادم، وأخذت تردد النظر إليها، ثم بدأت تقرعها مرة على رأسها، وأخرى على يديها، وثالثة على ظهرها^(٢)، كأنها وجدت من المستحيل أن تقف بالقرب منها دون أن ينالها بعض الأذى، ثم تناولت شيئًا من العاطوس^(٣) وصعدت في السلم، فتسلل أمامها الكاتب إلى المكتب من غير أن تراه .

(١) البصر (٢) يُعامل الخدم الآن في إنجلترا معاملة كلها عطف وشفقة .

(٣) ما يعطس منه مثل النشوق

رجع الكاتبُ (دِكْ) إلى مكتبه والحزنُ يُحزُّ^(١) في قلبه ،
وعلاماتُ الضَّجَرِ والألمِ باديةٌ على مُجْياه^(٢)؛ لهَوْلٌ ما رآه من سوءِ
معاملةِ تلكِ الخادِمِ البائسةِ المسكينَةِ التي لا تجدُ من الطعامِ
ما تُمسِكُ به رَمَقَها^(٣)، ولا تَشْمُ من الهواءِ ما يُقويها، ولا ترى
الشمسَ إلا غِرارًا^(٤)، فكانت تَقْضِي طولَ وَقْتِها بينَ جُدْرانِ
ذلكِ المطبخِ الرطبِ المظلمِ، فكثُرَ تفكيرُهُ في أمرِها، ووَدَّ لو
استطاعَ إنقاذَها وإخراجَها من ظُلُماتِ سِجْنِها .

وذاكَ ليلَةٍ بينما هو جالسٌ في مكتبه سَمِعَ غَطِيظًا آتِيًا من
جَهَةِ البابِ، فَظَنَّ أَنَّهُ صوتُ الخادِمِ لا مَحالةَ؛ فكثيرًا ما كانت
تُصابُ بالبردِ لرُطوبَةِ المطبخِ الذي تعيشُ فيه ولقد حانت منه
التفانَةُ، فنظَرَ نحوَ البابِ، فرأى عَيْنًا تنظرُ من ثَقَبِ المِفتاحِ،
فذهبَ إليه بِخَفَةٍ وهدوءٍ وفتحَها، وإذا بالخادِمِ خَلْفَهُ، فأمسكَ
يَدِها قبلَ أن تُحسَّ اقترابَها منها، فدُعِرَتْ وصاحتُ؛ ظانَّةً أَنَّهُ
سَيُعاقِبُها . وأخذتْ تحاولُ الفِرارَ وتوسَّلُ إليه قائلةً : إني لم أبنِ
من وراءِ نَظَرِتي رِيبةً يَاسيِّدي . وما أتيتُ إلى هنا إلا لأتِي

(١) يقطع (٢) وجهه (٣) الرَّمقُ : بقية الحياة . (٤) فترات فصيرة

سئمتُ الحياةَ تحت الأرضِ ، وبين جُدرانِ ذلكِ المطبخِ المظلمِ
الرطبِ . فأرجوكِ ياسيِّدي أن ترفقي بي ، وترحمي ضِعفي ، فلا
تُخبرِ الأُنسَةَ (سالي) بشيءٍ مما حدثَ وإلا قتلتي شرًّا قتلَةً .
فقال الكاتبُ : « اطمِئني ولا تخافي أحدًا ، ولا يتسرَّبُ
إلى ذهنِكَ أيُّ فكرٍ في إيذائِكَ أو إلحاقِ الضررِ بك ، ثم سكت
هُنيئَةً ، وسمحَ لها بمدِّها بالدخولِ في حجرتِهِ لتُدْفئَ نفسَهَا ،
وأمرَهَا بالجلوسِ .

قالت الخادمُ : « إني لا أجسُرُ^(١) على ذلك ، وأخشى أن تقتلني
الآنسةُ (سالي) إذا عرفتُ أني أتيتُ إلى هنا . »

الكاتبُ : « أعندكِ نارٌ في المطبخِ ؟ »
فأجابت . « عندي نارٌ ضعيفةٌ . »

الكاتبُ : « إنكِ تُرَبِّينَ نحيفَةً هزيلةً . أيُمكنكِ أن تتناولِي
شيئًا من الخبزِ واللحمِ مُقيمين به أو ذك^(٢) ؟ »

قالت : « نعم ، وأشكركُ ياسيِّدي . »
قال : « ما عمركُ ؟ »

(١) أقدم (٢) اعوجاجك ، صحتك السيئة .

قالت : « لا أعرفُ يا سيدي ، ولكنني أظنُّ أن عمري
عشرُ سنّوات .

فنظر إليها (الكاتبُ) والأسَى^(١) يملاً جوانحه، والأسفُ يُقبضُ^(٢)
مَضجَمَه ، ثم أحضرَ ما تيسَّرَ من الطعامِ والشرابِ ، وتبعها إلى
المطبخِ ، فوضعه أمامها وأمرها بتناوله . وما كادت الخادمُ المسكينَةُ
تَرى الطعامَ حتى هوتَ عليه فأتت على ما في الإناء . وبعد أن
انتهت من الشرابِ قام (الكاتبُ) وأخذ يُدرِّبُها على القيامِ بيمضِ
الألعابِ المنزليةِ حتى أجادتها . ثم قال لها : « اسمحي لي لكي
يتمَّ سروري أن أناديك (بالمرّةِ كيُونِس) أسمعين ؟ . « فأومأت
الخادمُ المسكينَةُ أن نعم ، ثم أخذت يلعبان حتى دقت الساعةُ العاشرةُ ،
فتذكَّرَ أنه يجبُ عليه أن يذهبَ إلى حجرةِ مكتبه قبلَ أن يعودَ
(المحامي وأخته) ، فاستأذنها في الخروجِ وقال : يا (مرّةِ كيُونِس) ،
أرجو أن تعدّيني صديقاً لك ، وآملُ أن نلعبَ كثيراً حتى
أُدخلَ السرورَ على نفسك . وقبل أن أغادرَكَ أريدُ أن
أسألكِ مرّةً أخرى عن السببِ الذي حدا بكِ إلى النظرِ

(١) الحزن (٢) يقفه .

من فتحة الباب . فأجابت وقد استولى عليها الذعر^(١) ، وتملكها
الفرعُ : « ما كنت أريد شيئاً أكثر من أن أسألك قطعةً من
الخبز ؛ فقد تغلبَ علىَّ الجوعُ ، ولم تُعطني سيّدتي ما يكفيني من
الطعام . ولو تركتُ لي مفتاحَ الخزانةِ ما امتدّت يدي إلى أكثر
مما يحفظ الحياةَ ، ويُزيلُ ألمَ الجوعِ .

دارت الأيامُ دورتها وتركَ الكاتبُ عمله مع المحامى ،
وعاش في حُجرةٍ صغيرةٍ مُنغزلةٍ عيشةَ الفقرِ والشقاء . وذات ليلةٍ
دبَّ ديبُ المرضِ في جسمه ، فأوى^(٢) إلى فراشه يتلوّى من
فرطِ الداءِ ، ووطأة^(٣) المرضِ ، وشعرَ بظماً شديداً لا يستطيعُ
إطفاءه ، وأخذَ يحلمُ في تلك الليلةِ أحلاماً مُزعجةً . وهكذا قضى
ليلته في بحرٍ لُجبي^(٤) تنقاذفه^(٥) الأهوالُ ، وترتطمُّ به الهمومُ .
وفي إحدى الليالي مرَّ به طيفُ الكرى^(٦) ، فأزال عن عينيه
شبح^(٧) السهادِ ، فاستسلمَ للنومِ ، وانقطعت عنه أحلامه وآلامه ،
فاستيقظَ من نومه وقد سرى النشاطُ في أعضائه ، وأحسنَ
الراحةَ ثمَّ جسمه ، فأخذَ يتذكّرُ الماضى ، وما ألم^(٨) به

(١) الفرع والخوف . (٢) لجأ (٣) شدة (٤) عميق (٥) تتلقفه
(٦) النوم (٧) جسمه (٨) نزل

من آلامٍ وأحزانٍ . وبينما هو ساجحٌ في بحارِ خياله إذ تذكر أنه نسيَ بابَ الحجرةِ مفتوحاً، فأزاح الستائرَ بيده، ونظرَ إلى الحجرةِ فوجدها مُغلقةً ، ولكنه شاهد فيها تغيراً كثيراً ؛ فقد وجدها نظيفةً مرتبةً الأثاثِ ، نقيّةَ الهواءِ ، تختلفُ كثيراً عما كانت عليه حينما أوى إلى فراشه . ولشدّ ما كانت دهشته عند ما وقعَ نظره على زجاجاتِ الأدويةِ . وسرعانَ ما عادت إلى نفسه ذِكْرِي (المرّ كيونس) ، فتخيّلها وهي واقفةٌ أمامه تلاعبُ نفسها على الخوان .

وتذكرُ كلَّ ما دار بينهما من حديثٍ . فظن أنه في حُلْمٍ من الأحلامِ ، فوضع رأسه على الوسادةِ ، واستسلمَ لأحلامه ، ولكنه عاد فرَفَعَ الستائرَ ثانيةً ، وأخذَ يجولُ بنظره في الحجرةِ ، فوجد (المرّ كيونس) واقفةً في ناحيةٍ منها وقد تملكها الفرحُ ، وشملها^(١) السرورُ . فأخذت تضحكُ وتُصَفِّقُ يديها، وأغرَبت^(٢) عن سرورها لشفائه ، وما لاقته من همٍّ وحيرةٍ في مرضه . فنظر إليها (دك) نظرةَ العطفِ والرحمةِ ، وطلبَ إليها أن تدنو منه حتى يقفَ على ما أصابه من ألمٍ أضنى^(٣) جسمه ، وضعفٍ أنك^(٤) قواه ، فهزّت

(١) عمّها . (٢) أبانت (٣) أتعبَ (٤) أذهب

(المركيونيس) رأسها وعاودها بُكاؤها . فتحرّك (دك) في فراشه وقال : « الآن فهمتُ أنى كنتُ مريضاً مرضاً شديداً . »
فأجابت الخادمُ الصغيرةُ وهى تمسحُ الدموعَ المنحدرةَ على خديها : « لقد كنتُ مريضاً حقاً ، وكنتَ قابَ قوسين^(١) أو أدنى من الموت . ولقد مضى عليك الآن ثلاثةُ أسابيعَ وأنت طريحُ الفراشِ . » فقال (دك) : « يا (مركيونيس) ، كيف حالُ (سالى) ؟ » فخارت قليلاً ، ولم تُجرِ جواباً ، ولكنها هزّت رأسها وقالت : « لا أعرفُ عنها شيئاً يا سيدي ؛ فقد هربتُ من خدمتها ، وأسألُ اللهَ لك الشفاءَ التامَ . » فسألها : « وأين تعيشين الآن . »
فأجابت : « إنى أعيش هنا . »

زفر (دك) زفراتٍ طويلةً ، ثم وضعَ رأسه على الوسادةِ وقد وقعَ في نفسه حديثُ (المركيونيس) موقعَ النبأِ في الأهدافِ ، وقال : « أخبريني كيفَ فكرتِ في الهجى إلى هنا ؟ »
فأجابت : « لقد أصبحتُ بأثمةً منذ غادرتَ العملَ فى مكتبِ المحامى ، فلم يكنْ لى أحدٌ يفكرُ فى سواك . وفى صباحِ أحدِ الأيامِ كنتُ قريبةً من المكتبِ ، فسمعتُ قائلاً يقولُ : إنك مريضٌ جدًّا ، وليسَ لديكِ أحدٌ يهتمُّ بشأنك ، أو يُعنى بخدمتكِ . »

وسمعتُ المحامى يقول : « ليس ذلكَ من شأنى . » ورددتُ
أخته تلكَ العبارةَ أيضاً ، فلم أُطقُ صبراً على وَحْدَتِكَ ومرَضِكَ ؛
ولذلكَ هَرَبْتُ وأُتيتُ إلى هنا ، ومكثتُ بجوارِكَ هذه المدةَ
أسهرُ على خِدْمَتِكَ ، وأُعنى بِشُؤْنِكَ . »

فصاح (دِك) : « إن هذه (المرَكِيُونِس) الصغيرة قد
حَمَلَتْ نَفْسَهَا ما لا طاقةَ لها بِحَمْلِهِ ، وَتَجَشَّمَتْ ^(١) هذه المتاعبَ
وتلك الآلامَ حتى أوهنتُ صِحَّتَهَا . » فقالت : « لا ! إننى وجدْتُ
فى تمرِيضِكَ سروراً عظيماً ، ولم ألقَ تعباً قطُّ ، فلا تفكرْ فى .
ويسرُّنى أنَّ صِحَّتَكَ الآنَ فى تقدِيمِ مستمِرِّ يا سيدى . »

فقال (دِك) : لولاك يا (مرَكِيُونِس) لُمْتُ وحيداً فى هذه
الحجرة ، فخيأتى وصحَّتى وراحتى منسوبةً إليك ، وإلى حسنِ
عنايتِكَ بى ، فلن أنسى لك هذا الجميلَ ما حييتُ .

آن للسيدِ (دِك) أن يَفِيَّ بِجَمِيلِ تلكَ الفتاةِ المسكينة ؛ فقد
ورثَ بعضَ المالِ عن أحدِ أقاربه ، فاشتَرى (للمرَكِيُونِس)
ما تحتاجُ إليه من حُلَلٍ جديدةٍ جميلةٍ ، وألحَقها بالمدراسِ لتتالَ
نصيبتها من التريية والتعليمِ . ولما بَلَغتَ التاسعةَ عشرةَ من عمرِها
بَنى ^(٢) عليها ، وعاشا معاً زوجينِ سعيدينِ .

الْقِصَّةُ السَّادِسَةُ

(دُرَّت) الصَّغِيرَةُ

كان المَدِينُ بانجلترا - في القرونِ الماضيةِ - يُحَكِّمُ عليه بالسَّجْنِ إذا عَجَزَ عن أداءِ ما عليه من الدُّيُونِ . وذاتَ مرَّةٍ خَسِرَ أحدُ الرِّجالِ المَهْدِيِّينَ ما لَدَيْهِ مِنْ مالٍ ، فاخِذَ إلى سِجْنِ (مَرْشَالِسِي) . وكانَ لذلكِ الرِّجُلِ زَوْجٌ وَفِيَّةٌ ، وابنٌ يُدْعَى (إِدْوَارْدَ) سِنَّهُ ثَلاثُ سِنِينِ ، وابنةٌ اسْمُهَا (فَانِي) تَبْلُغُ مِنَ العُمُرِ سَنتَيْنِ . لم تَجِدِ الأُمُّ أَمَلاً في أداءِ تلكِ الدُّيُونِ ، فذهبتْ بِطِفْلِهَا للمَعِيشَةِ في السَّجْنِ بِجِوارِ زَوْجِهَا المَسْكِينِ . وكانَ القانُونُ الإنكليزِيُّ إذ ذاكِ يُبيحُ للزَّوْجَةِ أنْ تَكُونَ مَعَ زَوْجِهَا السَّجِينِ في مُعْتَقَلِهِ . ضمَّهمُ السَّجْنُ بَيْنَ جُدْرانِهِ الضَّخْمَةِ ، وصارُوا لا يَرَوْنَ إلا وجوهَ المَسْجُونِينَ ، ولا يَبْصُرُونَ مِنَ العالَمِ الخارِجِيِّ إلا الأَشعَّةَ التي تَنفِذُ إِلَيْهِمْ مِنْ خِلالِ النِوافِذِ الضَّيِّقَةِ . يَبْدُ (١) أَنَّهُ كانَ يُسْمَحُ لِلأَطْفالِ بِاللَّعِبِ في فِناءِ السَّجْنِ ، فلم يَشعُرِ الطِّفْلانِ بِالآلامِ الحَبْسِ ، ولم يَدْرِكَا كَيْفَ كانَتْ حالُ أُبَيْهِما مِنْ قَبْلُ مِنْ

(١) غير أنه .

الزَّاءُ^(١) والنَّعْمَةُ، والعَيْشَةُ الرَّغْدُ^(٢)، وكيفَ حالِ الأُسْرَةِ اليَوْمَ،
وما هِيَ فِيهِ مِنْ ضِيقٍ وَشَقَاءٍ، وَذَلِّ وَهَوَانٍ.

وُلِدَ لِلرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ فِي السَّجْنِ بِنْتُ سَمِّيَاهَا (دُرَّت) ،
عَاشَتْ فِي السَّجْنِ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ فِي طِفُولَتِهَا ، وَكَانَتْ ذَكِيَّةَ
العقلِ ، عميقةَ التفكيرِ ، حَسَنَةَ الوَجْهِ ، خَفِيفَةَ الرُّوحِ ، أَحَبَّهَا
كُلُّ مَنْ رَأَاهَا مِنَ السَّجَنَاءِ ، فَأَقْبَلُوا عَلَيْهَا يُدَاعِبُونَهَا^(٣)
وَيُقَدِّمُونَ لَهَا مَا يَسُرُّهَا .

وَكَانَ السَّجَانُ « بَوْبٌ » أَكْثَرَ النَّاسِ إِعْجَابًا بِهَا ، وَعَظْفًا
عَلَيْهَا ، يُحِبُّهَا كَمَا يُحِبُّ ابْنَتَهُ .

وَحِينَما تَعَلَّمَتِ المَشَى اشْتَرَى لَهَا كُرْسِيًّا صَغِيرًا وَضَعَهُ لِتَجْلِسَ
عَلَيْهِ بِجَانِبِ المَوْقِدِ فِي حُجْرَتِهِ بِالسَّجْنِ . وَكَانَ يَقْدِمُ لَهَا اللَّعْبَ
وَالدُّمَى^(٤) لَتَلْهُوَ بِهَا . وَقد أَحَبَّتْ (دُرَّتُ) السَّجَانَ كَمَا أَحَبَّهَا .
لَا تَفَارِقُهُ إِلَّا حِينَما تَأْوِي إِلَى فِرَاشِها بِجِوَارِ أُمَّها فِي المَسَاءِ .

كَانَ نِظَامُ السَّجْنِ يَسْمَحُ لِلزَّوْجَةِ وَأَوْلَادِها بِالخُرُوجِ مِنْهُ
لِلرِّيَاضَةِ فِي أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ ، وَلَكِنها حَرَمَتْ نَفْسَها وَأَوْلَادَها ذَلِكَ

(١) الزَّاءُ : كَثْرَةُ المَالِ (٢) عَيْشَةُ رَغْدٌ بِسُكُونِ النِّينِ وَفَتْحِها أَى وَاسِعَةٌ
طَيَّةٌ . (٣) يَمَازِحُونَهَا (٤) جَمْعُ دُمِيَّةٍ : التَّمْتَالِ الصَّغِيرِ

لتكونَ إلى جوارِ زوجِها ؛ حتى لا يشمرَ بأنَّ شريكَةَ حياتِهِ تنعمُ
بزيارةِ الحدائقِ والبساتينِ من دُونِهِ .

نشأتُ (دُرْتُ) وهى لا تعرفُ مِنَ الدنِيا غيرَ السَّجَنِ
ذى الأبوابِ الضخمةِ ، والسِّيَاجِ^(١) المرتفعِ ، والنوافذِ الضيقةِ .
وكانت أمُّها لا تُحدِّثُها عن شىءٍ من أحوالِ الأسرةِ حتى لا تشمرَ
وهى فى مَهْدِها بآلامِ الحِياةِ .

وذاتَ يومٍ جَلَسْتُ (درتُ) إلى جانبِ السَّجانِ فى حُجْرَتِهِ
وأخذتُ تُحدِّقُ^(٢) بنظرِها إلى النافذةِ ، وتُقلِّبُ طرفَها^(٣) فى
السَّماءِ ، فلحَظَّها السَّجانُ وقالَ لها :

« فِيمَ تَفكِّرِينَ يا (دُرْتُ) ؟ أَتفكِّرِينَ فى الحقولِ ؟ »

فقالت : « ما الحقولُ ؟ وأين هى ؟ »

فأجاب السَّجانُ -- وقد أشارَ بمفتاحٍ فى يده : إنها قريبةٌ من
هنا . ألمَ يقعَ نظركِ عليها من قبلُ ؟

بلى : إننى لم أرَها . هل الحقولُ تُفتَحُ وتُغلقُ كما يُفتَحُ
السَّجَنُ ويُغلقُ ؟

(١) السِّيَاجِ : السور (٢) حدَّقَ : شدد النظر (٣) عيناها

تألم السجانُ في نفسه لسؤالها هذا ؛ لأنه أحسَّ ما يُحتاجُ^(١)
فؤادها من مرارة الأسْرِ . ثم قال لها : « لا يا بُنَيَّتِي ، إنها
لا تُعلق دائماً . »

فسألته : « هل الحقول جميلةٌ يا (بوبُ) ؟ وكان يُحبُّ أن
تُناديه باسمه مُجرّداً .

فأجاب (بوبُ) : « وى^(٢) ! إنها جميلةٌ جداً يا (درتُ) ، وسأخذُك
مَعِي حيثُ أُخرجُ ؛ لِتتمتعي بِجمالِ الطبيعةِ ، وترى بعينِكَ الأشجارَ
المثمرةَ ، والحدائقَ الفناءَ ، والمتنزّهاتِ العامةَ وقد اكتستَ أرضها
ببساطِ سندسٍ جميلٍ ، وازينتِ بالأزهارِ التي تَبعثُ في الجوّ
أريجها^(٣) المنعشَ ، وجرتَ فيها الجداولُ صافيةً رقيقةً تُحملُ الحياةَ
والنماءَ للنباتِ ، يقصدها الناسُ للتنزهِ واللعبِ .

درتُ : وهل الناسُ جميعاً يتمتعون بما في الحدائقِ والبساتينِ ؟
بوب : نعم يا (درتُ) . إن في قدرتكِ أن تذهبي إليها ،
وتأخذي حبلَكِ وتقفزي به هنا وهناك كما يحلو لكِ .

درتُ : أفى الحدائقِ أطفالٌ كثيرونُ أستطيعُ اللعبَ معهم ؟
بوب : ستجدين كلَّ ما يسركِ ويُفرحكِ هناكِ .

(١) خالَجَ فُلِي أمرٌ : نازَعَنِي فِيهِ فِكرٌ (٢) كَلِمَةٌ لِلتَعْجَبِ (٣) رَاحَتِهَا الطَّيْبَةُ

دُرَّتْ : وهل كان أبي يتنزه في تلك الحديقة ؟
السجّان : أجبها مثالماً : نعم كان يتنزه فيها ، ويتمتع
بمناظرها أحياناً .

دُرَّتْ : أهو أسفُّ الآن لحزمانه الحرّية في الحياة ؟
السجّان : أظنه غير أسفِّ كثيراً .

دُرَّتْ : أليس السجّان أسفين لا تقطاعهم عن العالم ،
وحرمانهم الرياضة والتنزه ؟ أجب يا (بوب) ! ما لي أراك
تصمت ؟ لم يُحر^(١) السجّان جواباً ، وتنفس الصعداء^(٢) . وللتخلص
من الإجابة غير موضوع الحديث ، ثم حملها بين يديه ، وأخذ
يسلّيها بلعبة جديدة كان قد اشتراها ليقدمها لها في عيد الميلاد .
صار (بوب) بعد ذلك يأخذ (دُرّت) كل يوم أحد إلى
الحدائق والمنتزهات فتلهو وتلعب ، وتقطف الأزهار الجميلة ،
وتنظّم منها طاقين تقدمهما لأبويها حين عودتها في المساء
إلى السجن .

وحينما بلغت (دُرّت) من العمر ثمانية أعوام توفيت أمها ،
فحزن الأب والأطفال عليها حزناً شديداً . وبفقدائها فقدوا من

(١) لم يدّر (٢) تنفساً طويلاً

يُعْنَى بِأُمُورِهِمْ ، وَيِهْتَمُّ بِشُؤْنِهِمْ ؛ فَقَدْ كَانَتْ الْإِبْنَةُ (فَانِي) فَتَاةً لَا تَعْرِفُ شَيْئًا ، وَلَا تَهْتَمُّ بِشَيْءٍ . وَكَانَ الْإِبْنُ (إِدْوَارْدُ) خَامِلًا بَلِيدًا ، لَا يَعْمَلُ ، وَلَا يَحِبُّ الْعَمَلَ . وَلَمْ يَكُنْ لَدَى الْأَبِ الْمَسْكِينِ مَنْ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ سِوَى ابْنَتِهِ الصَّغِيرَةِ (دُرَّتْ) . وَمُنْذُ صَغِيرِهَا كَانَتْ تَحْمِلُ قَلْبًا شَفِيقًا ، وَرُوحًا وَثَابَةً ، وَعَزِيمَةً قَوِيَّةً ، وَذِهْنًا حَاضِرًا . فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ رَاضَتْ^(١) نَفْسَهَا عَلَى الْعَمَلِ ، وَأَخَذَتْ تَفَكَّرُ - كَأُمَّ حَازِمَةٍ - فِي أَبِيهَا وَأَخْتِهَا وَأَخِيهَا .

وَلَقَدْ قَاسَتْ كَثِيرًا فِي سَبِيلِ أَنْ تَتَعَلَّمَ ، وَيَتَعَلَّمَ أَخَوَاهَا ؛ فَكَانَتْ تُرْسَلُهُمَا إِلَى مَدْرَسَةٍ نَهَارِيَّةٍ ، وَتَقُومُ هِيَ بِشُؤْنِ الْأُسْرَةِ ، وَتَعْمَلُ طَوْلَ النَّهَارِ مَنْفَرِدَةً ، فِي جِدِّ وَدَأْبٍ^(٢) ، حَتَّى إِذَا مَا جَنَّ^(٣) عَلَيْهَا اللَّيْلُ تَرَكْتَ الْمَنْزَلَ ، وَذَهَبَتْ إِلَى مَدْرَسَةٍ لَيْلِيَّةٍ لِتَتَعَلَّمَ فِيهَا الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ وَالْحِسَابَ .

وَحِينَما بَلَغَتْ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهَا أَلْقَتْ^(٤) نَفْسَهَا قَدْ حَذَقَتْ^(٥) التَّدْبِيرَ الْمَنْزِلِيَّ ، وَاسْتِطَاعَتْ أَنْ تَقْرَأَ وَتَكْتُبَ .

دَخَلَ السَّجْنَ سَجِينٌ جَدِيدٌ لَدَيْنِ كَانِ عَلَيْهِ ، وَسَمِعَتْ (دُرَّتْ)

(١) عودت (٢) جد وتعب . (٣) ستر (٤) وجدت (٥) مهرت

أنه معلمٌ للموسيقا . وكانت تجدُ في أختها (فاني) ميلاً لذلك الفنّ ، فذهبتْ إليه وقالت له :

سيدي ، أسمحُ لي بالتحدُّثِ إليك ؟

السجين الجديد : نعم ، إنني مُنصتٌ^(١) لكلِّ ما تقولين . ولن أبخلَ عليكِ بأيةِ معونةٍ تكونُ في طاقتي أيُّها السيِّدةُ الصغيرةُ .

درتْ : شكراً لكِ ياسيِّدي . إنني أريدُ أن أرجوكِ شيئاً لا لنفسِي ، بل لأختي الكبيرة ، وهو أن تسمحَ بتعليمِها الموسيقا . فهل لكِ أن تُسدي^(٢) إليّ^(٣) لن ننساها أبداً الدهر بتعليمِها ذلك الفنَّ الجميلَ ؛ علها تستطيعُ فيما بعدُ أن تكسبَ منه ما تُعينُ به أسرتنا العائرة^(٤) الجُدُّ ، ولن نبخلَ عليكِ بما يصلُ إلى أيدينا من مالٍ ؟

السجين الجديد : بكلِّ سرورٍ سأقومُ بتعليمِ أختك من غيرِ أن أنتظرَ أيَّ أجرٍ على القيامِ بواجبٍ .

واظبتْ (فاني) على دروسها ، وأظهرتْ براعةً ومقدرةً ، وعُني^(٥) بها المدرِّسُ عنايةً كبيرةً ، وأعجبَ بتقدُّمها في الموسيقا

(١) ساكت ومستمع (٢) تحسن (٣) اليد : النعمة والايحسان

(٤) السيئة الحظ (٥) اهتم

يوماً بعدَ يومٍ . ولم يَنْقَطِعْ عن الحضورِ لتعليمها حتى بعدَ أن
أدَّى ما عليه من الدِّينِ ، وأُطْلِقَ سَراحَهُ من السَّجْنِ .

سُرَّتْ (درت) كثيراً بتقدم أختها، فدعاها ذلك إلى أن تتعارف
بسيدهِ سَجِينِ كانت تَتَّخِذُ خياطةَ الملابسِ للسيدات مهنةً لها .
ورجتها أن تُعلمها . فاعتذرت السيدة ؛ مُدَّعِيَةً أن (درت) ضعيفةُ
البنيةِ ، صغيرةُ الجسمِ ، لا تستطيعُ أن تحتملَ آلامَ تَعَلُّمِ الحياكةِ .
ولكنَّ (درت) أظهرت لها في جِدِّ ودأبٍ^(١) ، وعزيمةَ صادقةٍ ،
أن في قُدرتها أن تتعلمَ كلَّ شيءٍ رَغِبَتْ في تعلمهِ ، وأن لديها
استعداداً للفهم إذا سمحت السيدة بتعليمها .

فعارضتِ السَّجِينَةُ قائلةً : « إنك لا تزالين صغيرةً ، وصغيرةً
جداً . »

فقالت (درت) : « نعم . أنا صغيرةٌ ، وصغيرةٌ حقاً . »
وأخذت تبكي ، فنألت لها السيدة ، وأخذتها بين يديها ،
وعطفت عليها ، ثم بدأت تُعلِّمها ، فوجدتها ذكيةً ، قويةَ الملاحظةِ ،
كثيرةَ الصبرِ ، شديدةَ الرغبةِ في التعلُّمِ . وسُرعان ما أظهرت
نجاحاً باهراً في الحياكةِ والتطريزِ .

(١) دأب في عمله : جَدُّ وتعب ، وبابه قطع وخضع

اشتغلت (فاني) بالموسيقا في إحدى دُورِ الملاهي، واستطاعت أن تكسبَ عَيْشَهَا بِنَفْسِهَا، وعاشتْ معَ عَمَّهَا المهرِمِ المِسْكِينِ خَارِجِ السَّجْنِ . وَحَدَقَتْ^(١) (دُرْتُ) حِرْفَةَ الخِيَاطَةِ، وَبَدَأَتْ الحَيَاةَ تَبَسُّمُ لتلك الأُسْرَةِ المُنكُودَةِ؛ فَإِنَّ (دُرْتُ) نَجَحَتْ فِي عَمَلِهَا، وَأَخَذَتْ تَفَكَّرُ فِي إِخْرَاجِ أَخِيهَا مِنَ السَّجْنِ، لَتُنْقِذَهُ مِنْ مَن أَخْلَاقِ السَّجْنَاءِ وَيَبْتِهِمْ . وَبِمُسَاعَدَةِ (بُوبِ) الصَّدِيقِ القَدِيمِ أَمَكَّنَهَا أَنْ تَجِدَ لَهُ عَمَلًا يَكْسِبُ مِنْهُ قُوَّتَهُ، وَلَكِنْ وَأَسْفَاهُ ! كَانَ كُلَّمَا أَحْقَقَتْهُ أُخْتُهُ بِعَمَلٍ أَظْهَرَ مِنَ الكَسَلِ والإِهْمَالِ وَالتَّقْصِيرِ مَا يُبْلِغِي^(٢) صَاحِبَ العَمَلِ إِلَى طَرْدِهِ وَالاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ . وَأَصْبَحَ عَيْنًا^(٣) ثَقِيلًا عَلَى (دُرْتُ) الصَّغِيرَةِ حَتَّى يَبْتَسَتْ مِنْ إِصْلَاحِ حَالِهِ، فَعَمِلَتْ عَلَى أَنْ تَقْتَصِدَ مِقْدَارًا مِنَ المَالِ يَكْفِي سَفَرَهُ إِلَى (كَنْدَا)؛ لِلبَحْثِ عَنْ حَظِّهِ هُنَاكَ . وَكَانَ يَهَاجِرُ إِلَيْهَا الفُقَرَاءَ المُعْدِمُونَ فَيَعُودُونَ مِنْهَا أَغْنِيَاءَ . ادَّخَرَتْ^(٤) القَدْرَ الكَافِيَ وَقَدَّمَتْهُ لِأَخِيهَا (إِدْوَارَدَ)، وَطَلَبَتْ مِنْهُ المَهَاجِرَةَ، وَزَوَّدَتْهُ بِنِصَائِحِهَا الثَّمِينَةِ، وَوَدَّعَتْهُ عِنْدَ مَغَادِرَتِهِ بِقَوْلِهَا: «أَسْتُوْدِعُكَ اللهُ أَيُّهَا الأَخُ

العزيرُ . أرجو لكَ النجَاحَ في (كندا) ، وآملُ أن تكتبَ إلينا .
ولا تنسَ أن تعودَ لرؤيتنا حينما يكتبُ لك اللهُ الفوزَ والتوفيقَ .
أخذَ (إدواردُ) النقودَ من شقيقته ومضى . ولكنه لم يسافرْ
إلى (كندا) ، بل مكثَ في (ليبربول) حتى فقِدَتْ نقودُه ،
ثم عادَ إلى (درت) المسكينةِ بعد شهرٍ ، دأبىَ القدمِ ، مُمزقَ
الثيابِ ، رثٌ ^(١) الهيئةِ فدُعِرَتْ ^(٢) أخته دُعاءً شديداً حينما رآته ،
واستولى عليها الحزنُ والألمُ حينما قصَّ عليها قصته ، وأخبرها بأن
نقودَه سُرِقَتْ منه في (ليبربول) ؛ فلم يتمكنْ من السفرِ إلى
(كندا) ، واضطُرَّ إلى الاستدانةِ ، مُحكَمَ عليه بالسجنِ .

فَزِعَتْ لقوله هذا الفزعُ كُلَّهُ ، وَرَجَّتْه أَلَا يَرُدُّدَ كَلِمَةَ
« السَّجْنِ » ؛ لأنها تبعثُ في نفسِها كلَّ غَمٍّ وَهَمٍّ ، وألَا يُخْبِرَ أَبَاهُ
حتى لا ينفِطِرَ ^(٣) قلبه كمدأ وحزناً ، ولا تتضاعفَ آلامُه ، وينوءَ
تحتَ تلكَ الأرزاءِ فيخِرُ صريعاً .

اثنتانِ وعشرونَ سنةً قضتها (درتُ) في شقاءٍ دائمٍ ، وألمٍ
مستمرٍّ ، وهَمٍّ مُقيمٍ . ألمٌ تَبزُغُ ^(٤) شمسُ حياتها في غيابهٍ ^(٥)

(١) الرث : البالي (٢) فزعت (٣) يتقطع (٤) تطعم

(٥) الغيبُ : الظلمةُ ، والليل

الظلماتِ؟ أَلَيْسَتْ رَيْبِيَّةَ السَّجْنِ، وابنةَ طريدِ المجتمعِ؟ أَلَمْ تَجَاهِدِي فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ وَهِيَ لَمْ تَعُدِّي الثَّامِنَةَ مِنْ عُمْرِهَا؟ أَلَمْ تَحْمِلِي أَوْصَابَ^(١) الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ تَعْلِيمِ إِخْوَتِهَا وَإِنْقَاذِ أَسْرَتِهَا؟

« رَبِّاهُ! أَتَقْذِنِي مِمَّا أَعَانِي^(٢). لَقَدْ احْتَمَلْتُ مَا لَمْ يَحْتَمِلْهُ أَحَدٌ، وَقَاسَيْتُ مَا لَمْ تُقَاسِهِ فَتَاةٌ. لَقَدْ تَعَبْتُ كَثِيرًا، وَشَقِيتُ طَوِيلًا. رَبِّاهُ! عَفْوُكَ وَرَحْمَتُكَ! وَإِحْسَانُكَ وَرِضْوَانُكَ. »

بهذه الكلماتِ الحازَّةِ كانتِ تَتَضَرَّعُ إِلَى رَبِّهَا بِأَكْبَرِ صَبَاحِ مَسَاءٍ. وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا الصَّادِرَ عَنْ تِلْكَ النَّفْسِ الطَّاهِرَةِ، وَالرُّوحِ الْبَرِيئَةِ، وَأَخَذَ الدَّهْرُ يَبْتَسِمُ لَهَا؛ فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ لَتَلْبِي دَعْوَةَ سَيِّدَةٍ غَنِيَّةٍ اسْتَدْعَتْهَا لِتَخِيطَ لَهَا ثِيَابَهَا فِي بَيْتِهَا. وَكَانَ تِلْكَ السَّيِّدَةُ ابْنُ كَرِيمٍ الْخُلُقِ، شَرِيفِ النَّفْسِ، رَضِيَ الطَّبَعِ، كَثِيرُ الْعَطْفِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، يُدْعَى السَّيِّدَ (كَلِينًا). عَرَفَ قِصَّةَ (دُرَّتِ) وَمَا قَاسَتْهُ مِنْ آلَامِ، وَمَا قَامَتْ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ، فَأَخَذَتْهُ الشَّفَقَةُ عَلَيْهَا، وَالرَّأْفَةُ بِهَا، فَعَزَمَ عَلَى أَدَاءِ دَيْنِ أَبِيهَا وَأَخِيهَا، وَإِنْقَاذِهِمَا مِنْ غِيَاهِبِ^(٣) السَّجْنِ.

وذاتَ يومٍ كانا عائدينِ إلى المنزلِ - بعدَ أن مرّا بالدائنينَ
لمعرفةِ مقدارِ الدينِ - فسمعتُ (دُرْتُ) صوتًا يُناديها :
« أمِّي الصغيرة . » فتلفتتُ نحوَ مصدرِ الصوتِ ، فرأت فتاةً
تعدو ونحوها . وما كادت تصلُ إليها حتى ألقَتَ بنفسِها بينَ يديها ،
وقد سقطَ منها ما كان بيدها من (البطاطسِ) . فعرفتها (دُرْتُ)
وقالت لها بكلِّ عطفٍ وحنانٍ : مرحباً بكِ يا (ماجى) . أين
أنتِ ؟ ومالى أراكِ مُشعَّنةً ^(١) الشعرِ ؟

قدَّمتُ (دُرْتُ) الفتاةَ للسيدِ (كلينام) ، وعرفته أنها
كانت حفيذةً لجارةٍ لها ، وأن جدَّتها كانت تقسو في مُعاملتها
وهي صغيرةٌ ، وقد أُصيبتُ بحمى شديدةٍ وهي في العاشرةِ من
عمرِها ، فأرسلتُ إلى المستشفى ، فوجدتُ فيه من الراحةِ والعنايةِ
والرعايةِ ما لم تألفه من جدَّتها . وكثيراً ما تناولتُ فيه شرابَ
اللِّيمونِ اللذيذِ ، والدجاجِ الشهيِّ ، والطعامَ الصَّحى . فودَّتُ لو
أنها تبقى مريضةً إلى الأبدِ . ولكنَّ لحسنِ حظِّها أو لسؤنِةِ
برئتُ ^(٢) من مرضِها ، وخرجتُ من المستشفى ، وعادت لتلقى
من عذابِ جدَّتها ، وشِدَّةِ قسوتِها الأمرينِ ^(٣) . ولكنها كانت

(١) مُشعَّنةٌ (٢) سَلِمْتُ وشُفِيتُ (٣) الأمران : الفقر والهرم

مُجِدَّة كَثِيرَةَ الصَّبْرِ ، اسْتَطَاعَتْ بِمُثَابَرَتِهَا أَنْ تَشُقَّ لِنَفْسِهَا طَرِيقًا فِي الْحَيَاةِ ، وَتُوجِدَ لَهَا عَمَلًا تَرْتَزِقُ مِنْهُ .

قَصَّتْ (دَرَّتْ) عَلَى السَّيِّدِ (كَلِينَامَ) كُلَّ شَيْءٍ عَنْ تَارِيخِ (مَاجِي) إِلَّا مَا كَانَتْ تُقَدِّمُهُ لَهَا مِنْ مَعُونَةٍ ، وَمَا كَانَتْ تَحُوطُهَا^(١) بِهِ مِنْ عَطْفٍ وَرِعَايَةٍ ، وَمَا كَانَتْ تُسَاعِدُهَا بِهِ مِنْ مَالٍ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ فَقْرِهَا وَحَاجَتِهَا . لَمْ تَذْكُرْ لَهُ (دَرَّتْ) أَنَّهَا هِيَ الَّتِي قَدَّمَتْهَا لِإِحْدَى الْأَسْرِ لِتَكُونَ مَرِيئَةً لِأَبْنَائِهَا . وَلَكِنَّهُ فَهِمَ هَذَا كُلَّهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ؛ مِنْ مَنَادَاةِ (مَاجِي) الْمَسْكِينَةِ لِدَرَّتَ «بِأُمِّي الصَّغِيرَةَ» ، وَمِنْ شِدَّةِ تَلْقَاقِهَا بِهَا ، وَمِنْ نَظَرَاتِ الْإِجْلَالِ الَّتِي كَانَتْ تَرْمُقُ^(٢) بِهَا (مَاجِي) أُمَّهَا الصَّغِيرَةَ (دَرَّتْ) .

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي الْقَارِسَةِ^(٣) الْبَرْدِ ذَهَبَتْ (دَرَّتْ) وَمَعَهَا (مَاجِي) إِلَى بَيْتِ السَّيِّدِ (كَلِينَامَ) ؛ تُتَقَدَّمُ لَهُ جَزِيلَ شُكْرِهَا ، وَوَافِرًا^(٤) ثَنَائِهَا ، لِأَدَائِهِ الدُّيُونَ عَنْ أُخْيَاهَا وَأَبِيهَا . وَلَكِنَّهَا أَلْفَتَ^(٥) الْبَابَ مُوَصَّدًا^(٦) ، فَلَمْ تَشَأْ أَنْ تَقْرَعَهُ حَتَّى لَا تُرْعِجَ مِنْ فِيهِ . وَعَادَتْ إِلَى السَّجْنِ فَرَأَتْهُ مُغْلَقًا ، وَوَجَدَتْ السَّجَانَ نَائِمًا .

(١) تَكَلَّوْهَا وَتَرَعَاهَا . (٢) نَظَرَ (٣) الشَّدِيدَةَ (٤) كَثِيرَ

(٥) وَجَدَتْ (٦) مَغْلَقًا

فَقَضَتِ اللَّيْلَةَ فِي الشَّوَارِعِ ، تَجْلِسُ آوَنَةً^(١) بِجَانِبِ بَابِ السَّجْنِ ،
وَتَمْشِي آوَنَةً أُخْرَى فِي الطَّرِيقِ . كُلُّ هَذَا (مَاجِي) تَرْتَعِدُ مِنْ
شِدَّةِ الْبَرْدِ . وَكَانَتْ كَمَا هَمَّتْ بِمُؤَالَاةِ^(٢) قَرْعِ الْبَابِ مَنَعْتَهَا
(دُرَّتُ) ، وَقَالَتْ لَهَا : « لَيْسَ مِنْ حَقِّنَا أَنْ نَوْقِظَ النَّائِمَ مِنْ
رُقَادِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ فِي شَيْءٍ أَنْ تُتَعَبَ غَيْرَنَا لِنَسْتَرِيحَ . »
وَأَخِيرًا انْقَضَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ اللَّيْلَاءُ^(٣) - بَعْدَ أَنْ طَالَ الْإِنْتِظَارُ -
وَأَتَى الصَّبَاحُ ، وَفُتِحَ الْبَابُ ، وَاسْتَرَاخَتْ (مَاجِي) . وَعَانَقَتْ
(دُرَّتُ) أَبَاهَا السَّجِينَ ، وَذَكَرَتْ لَهُ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمُحْسِنِ
النَّبِيلِ السَّيِّدِ (كَلِينَامَ) .

خَرَجَ الْوَالِدُ مِنَ السَّجْنِ ، وَشَكَرَ لِلسَّيِّدِ (كَلِينَامَ) ذَلِكَ
الْعَطْفَ الْكَثِيرَ ، وَتِلْكَ الْمُرُوءَةَ النَّادِرَةَ ، وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَقْدِرَهُ
عَلَى رَدِّ ذَلِكَ الْجَمِيلِ .

ابْتَسَمَ الدَّهْرُ ثَانِيَةً لِتِلْكَ الْأُسْرَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَزَالَ ذَلِكَ الشَّقَاءُ
الَّذِي كَانَ يُنْجِمُ عَلَيْهَا ، وَتَغَيَّرَتِ الْحَالُ تَغْيِيرًا كَثِيرًا ، وَتَبَدَّلَتْ مِنْ
شَقَاءٍ إِلَى سَعَادَةٍ ، وَمِنْ سِجْنٍ إِلَى حُرِّيَّةٍ ، وَمِنْ فَقْرٍ إِلَى غِنَى .

(١) مرة (٢) متابعة (٣) ليلة ليلاء : شديدة الظلمة .

سبحانه جلّ شأنه . « يُعزُّ من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء . إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . »

ولكن لم تنسَ (درّت) أصدقاءها الفقراء ، ومن مدّوا لها يدَ المعونة ؛ فكانت تُحسنُ إليهم وترعاهم ، وتُقدِّمُ لهم كلَّ ما تستطيع من مُساعدةٍ وكان أبوها يشجّعها على الإحسان .

شاء القدرُ أن يُصبحَ السيدُ (كلينامُ) فقيراً ، وأن يستدين فيزجَ به في السِّجْنِ . فلم تنسَ (درّت) تلك اليدَ^(١) التي أسداها^(٢) إلى أسرتهَا ، فعولتْ على إيقاظه من السِّجْنِ ، وإطلاقِ سراحه مهما كلفها ذلك . وأدّى أبوها ما على (كلينامَ) من ديونٍ ، فأخرجَ من السِّجْنِ . ومكّنَ اللهُ والدهَ (درّت) من أن يرُدَّ له الجميلَ . ولا يضيعُ جميلٌ أينما وُضع .

وتزوَّجَ السيدُ (كلينامُ) الأمَّ الصغيرةَ (درّت) ، وعاشا سعيدينِ مدى حياتهما ، تُرْفَرُ عليهما الهناءةُ والسعادةُ ، يَكُوِّهُمَا^(٣) اللهُ بعنايته ، ويحفظُهُما برعايته .

القِصَّةُ السَّابِعَةُ

« تَمَّ » الكَسِيحُ الصَّغِيرُ

جَرَتْ عَادَةُ الْأُمِّ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ أَنْ تَتَخَذَ لَهَا مِنْ بَيْنِ أَيَّامِ الْعَامِ
أَعْيَادًا ، يَنْقَطِعُ فِيهَا الْأَفْرَادُ عَنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَيَلْبَسُونَ جَدِيدَ الثِّيَابِ ،
وَيَتَلَقَّوْنَ مُتَصَافِينَ فَرَحِينَ ، فِي مَظَاهِرِ السَّعَةِ وَالرَّفَاهَةِ ^(١) ،
كُلٌّ عَلَى قَدَرِ طَاقَتِهِ . وَمِنْ تِلْكَ الْأَعْيَادِ يَوْمُ عِيدِ الْمِيلَادِ ؛ فَقَدْ
كَانَ النَّاسُ يُوفِّرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فِيهِ سُبُلَ الرَّاحَةِ وَالذَّعَةِ ^(٢) ، وَوَسَائِلَ
السَّعَادَةِ وَالسُّرُورِ . وَعَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ السَّيِّدُ « سَكْرُوجُ »
التَّاجِرُ ؛ فَقَدْ كَانَ غَلِيظَ الْقَلْبِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّئِ الْمَعَامَلَةِ ، لَا يُفَكِّرُ
إِلَّا فِي ادِّخَارِ الْأَمْوَالِ ، وَالتَّقْتِيرِ عَلَى نَفْسِهِ . فَلَا يَأْبَهُ ^(٣) لِسْتُونَ
غَيْرِهِ ، وَلَا يَحْفَلُ ^(٤) بِمَا يَتَمَنَّوْنَهُ مِنْ خَفَضِ الْعَيْشِ ، وَرَغْدِ ^(٥)
الْحَيَاةِ . لِهَذَا أَبْغَضَ الْعَيْدَ ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِهِ ؛ إِذْ عَدَّهُ نَوْعًا مِنْ
حُبِّ الظُّهُورِ .

(١) الرفاهة : السَّعة . (٢) السكون . (٣) يأبه : يكثر ، يفتن .

(٤) يبال . (٥) واسعة طيبة

عاشَ السَّيِّدُ «سَكْرُوجُ» عَيْشًا وَضِعًا عَلَى نَحْوِ مَا يَعِيشُ
أَهْلُ الْمَتْرَبَةِ وَالْإِمْلَاقِ، فِي حَجْرَتَيْنِ لَا تَنْفُذُ إِلَيْهِمَا أَشْعَةُ الشَّمْسِ،
وَتُدْخِلَانِ النِّعْمَ عَلَى النَّفْسِ، وَتَبْعَانِ الْأَمِّ فِي الْفَوَادِ. عَاشَ لَا يَشْعُرُ
بِفَرْحٍ، وَلَا يُحْسُ جَدَلًا^(١)، بَلْ كَانَ يُبْفِضُ الْفَرْحَ، وَيَعْمَقُ الْأَعْيَادَ.
وَلَقَدْ تَسَرَّبَ بُوْسُهُ وَتَبَرَّمَهُ إِلَى كَاتِبِهِ الْمَسْكِينِ؛ فَقَدَّرَ^(٢) عَلَيْهِ
رِزْقَهُ، وَلَمْ يُعْطِهِ إِلَّا تَقُودًا ضَيْلَةً، لَا تُنَاسِبُ جَهْدَهُ وَنَشَاطَهُ.
حَدَثَ فِي لَيْلَةِ عِيدِ الْمِيلَادِ - وَقَدْ اشْتَدَّ بَرْدُهَا، وَكَثُرَتْ
مُتَلَوِّجُهَا، فَكَسَّتِ الشَّوَارِعَ وَالْحَدَائِقَ بِسَاطًا نَاصِعَ الْبِيَاضِ -
أَنْ سَمَحَ السَّيِّدُ (سَكْرُوجُ) - عَلَى كَرِهِ مِنْهُ - لِكَاتِبِهِ التَّعَسُّ
بِقَضَاءِ يَوْمِ الْعِيدِ فِي بَيْتِهِ مَعَ أُسْرَتِهِ، فَأَغْلَقَ مَكْتَبَهُ وَهُوَ يَكَادُ
يَتَمَيَّزُ^(٣) مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ. وَذَهَبَ إِلَى مَنزِلِهِ شَارِدَ اللَّبِّ^(٤)،
ضَيْقَ الصَّدْرِ، لَوْقَفَ حَرَكَةَ الْعَمَلِ فِي غَدِهِ .

تَنَاوَلَ (سَكْرُوجُ) التَّاجِرُ نَزْرًا^(٥) يَسِيرًا مِنْ طَعَامٍ لَا يُسْمَنُ
وَلَا يُفْنَى مِنْ جُوعٍ. وَجَلَسَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَوْقِدٍ صَغِيرٍ فِي جَانِبِ
مِنْ حُجْرَتِهِ الْعَابِسَةِ، لِيُذْهِبَ عَنْ نَفْسِهِ قُرًّا^(٦) الشِّتَاءِ، ثُمَّ أَوَى

(١) الجذل : الفرح . (٢) قدر (٣) يتقطع . (٤) العقل .

(٥) النزر : القليل النافه . (٦) برد .

إلى فراشه . وما كادَ الكَرَى^(١) يُناوِي أُجفانه حتى تراكت^(٢)
عليه الأفكارُ من كلِّ صوبٍ ، وتزاحمتُ في عَقْلِهِ بواعثُ
القلقِ والاضطرابِ . فقصَى ليلتهُ بينَ أحلامٍ مُزعجةٍ ، وأوهامٍ
تَقْضُ^(٣) المضاجعَ ، وتُورِّقُ الأَعْيُنَ .

ولندعُ الآنَ التاجرَ تائهاً في بحارِ أحلامِهِ المروعةِ ، مُتقلِّباً
عَلَى أشواكِهِ من حَسَكِ السَّمدانِ ، فَتَمْنَعُ طرفَهُ^(٤) الرُّقادَ .
ولنعُدُّ إلى الكاتِبِ العائِرِ الجُدِّ ، لنرى كيفَ قضى ابنُهُ (تم)
الصغيرُ يومَ العيدِ .

يُدعى ذلكَ الكاتِبُ (بُوب كراكت) ، وقد عاشَ مع زوجتهِ
وأولادِهِ السَّتَّةِ ، ومن بينهم (تم) الصغيرُ . وهو طفلٌ ضعيفٌ
البنيةِ ، لا تقوى قداماه الواهتانِ على حمله ، بل لا بُدَّ له من عَصَا
يَتَكَيُّ عليها ، فنالَ عَطْفَ وَالديهِ ومَحَبَّةَ الأُسرةِ . ومع ضَعْفِهِ وَقَلَّةِ
حيلتهِ ، كانَ رقيقَ الطَّبَعِ ، جميلَ الوجهِ ، صبوراً على المسكارهِ ،
يُحِبُّ أبويهِ وإخوتَهُ ، يَعْطِفُ عليه كلُّ من رآه ، ويرأفُ به
جميعٌ من رَنا^(٥) إليه . وكثيراً ما كانَ يَحْمِلُهُ أبوه على كَتِفِهِ في أوقاتِ

(١) النعاس . (٢) اجتمعت . (٣) تجملها خشنه . (٤) عينه

(٥) أدام النظر .

فراغِهِ، ويخرجُ به للزُّهَةِ والرِّياضَةِ بينَ الحدائقِ الغنَّاءِ، والبساتينِ النَّاضرَةِ، والحوانيتِ الجميلةِ، وأجداً من اللذَّةِ والسَّعادةِ في إدخالِ الشُّرورِ على ابنِهِ ما لا يَشْمُرُ بهِ إلا الآباءُ الرَّحماءُ .

حملَ الأبُ طفلهَ الصَّغيرَ، وذهبَ به إلى الكَنِيسةِ يومَ العيْدِ، تاركاً زوجتهُ تهيئُ طعامَ الغداءِ حتى يحضُرًا . ولما انتهت أخذتُ تسألُ أولادها :

« ماذا حدِّثَ لأبيكم البارُّ وشقيقكم حتى تأخُّرا إلى تلكِ السَّاعةِ ؟
إني ما عهدتُ تأخيراً يومَ العيْدِ قبْلَ الآنِ . »

فأبى سمعَ الأولادُ كلامها حتى أسرَّعوا إلى النَّافذةِ يَسْتظلمونَ الخبِرَ، فإذا أبومُ مُقبِلٌ يتأفَّفُ وتصطكُ أسنانهُ من شِدَّةِ البرْدِ؛ إذ كانَ يرتدى حُلَّةً باليةً، ليسَ عليها معطفٌ يدفَعُ عنه قوارِسَ البرْدِ، وثلوجَ الأمطارِ . وقد حملَ على كَتِفِهِ أخاهُ الصَّغيرَ، وفي يَدِهِ العصا التي يتوكأُ عليها . فصاحوا جميعاً في نَفْسِ واحدٍ، والبشْرُ يتلأأُ على صفحاتِ وجوههم : « ها هو ذا مُقبِلٌ يا أمَّاهُ ! »
وأسرَّعوا نحوَهُ للقائه .

ولما قُرب ودخل فناء الدَّارِ سألت الزَّوجُ : « كيفَ كانَ سلوكُكُم » تمَّ « في الكنيسةِ يا عزيزي ! »

« حَسَنٌ جدًّا ، على خَيْرِ ما نرجو وإني لأظنُّه بدأ يشعرُ بالقلقِ وضيقِ الصِّدْرِ لمكثِهِ داخلَ البيتِ كثيرًا ؛ فقد أخبرني وأنا عائِدٌ بأنهُ يَرجو أن يتذكَّرَ الناسُ - اللّذينِ رَأَوْهُ في الكنيسةِ كسيحًا ، لا يَسْتَطيعُ السيرَ على الأقدامِ - اللهَ الخالقَ الذي جعلَهُم قَادِرِينَ على المشي . »

فقالت أمُّه بصوتٍ مُرتجفٍ : « كلاًهُ^(١) اللهُ بِعينِ رِعايَتِهِ ، وباركَ في قلبِهِ الطَّاهِرِ . »

وقال الأبُّ : « إنَّ » تمَّ « قد تحسَّنتِ صِحَّتُهُ ، وأصبحَ أقوى بما كانَ . »

أعدَّت الأمُّ مائدةَ الغداءِ ، فوضعتْ في وَسَطِهَا إوْرَةً كبيرةً ، وأحضرتْ « بلنْدًا » إحدى بناتِها الخُصَرَ ، وأتى « پيترُ » بالبطاطسِ ، ونظَّم الأطفالُ الآخرون الكراسيَّ حولَ المائدةِ ، ثمَّ جالسَ كلُّهم في موضِعِهِ يَطْعَمُ^(٢) ، و« تمَّ » بجانبِ والدهِ يحوطُهُ بحنانِهِ وعنايَتِهِ . وقد بدأ البشرُ على

مُحِبًّا^(١) « تِم » وهو يُرَدُّدُ عباراتِ التَّهَانِي : مَرَّحَى . مَرَّحَى .

جىء بعد ذلك بالعصيدة والبخارُ بصاعدُ منها ، فالتهموها حتى آخر لُقْمَةٍ فيها ، ثم صَفَّ البُرْتُقَالِيُّ أَمَامَهُمْ ، فَأَكَلُوا هِنِيئًا وشربوا مَرِيئًا . ولَمَّا انْتَهَوْا من تناولِ الغدَاءِ قال أبوهم : « عيدُ سعيدٍ يا أبنائي الأعزَّاءِ ! أعادَهُ اللهُ عليكم باليمنِ والإقبالِ . »

فقال « تِم » : « اللهُ يُسْعِدُنَا جميعًا . » وتناولوا أقداح^(٢)

الشَّرَابِ ، فشرب كلُّ منهم نَحْبَ أخيه ، ثم اقتسموا فيما بينهم نَحْبَ السَّيِّدِ « سَكْرُوجَ » ربِّ نَعَمَتِهِمْ . وأخذوا يتجادبون أطرافَ الحديثِ ومُلَحَّ الكلامِ ، ويُفَنِّي كلُّ منهم ما يَعْرِفُ من الأغاني . وكان « تِم » عذبَ الحديثِ ، رخيماً الصَّوْتِ ، فغَنَّى أُغْنِيَةً^(٣) طريفةً حوَّلَ طِفْلٌ فَقَدَ في التَّلَجِ يومَ عيدِ المِيلادِ .

هكذا قضى الكاتب يومَ العيدِ سعيداً بين أبنائه الصغارِ ، وزوجهِ الرِّعْمِ ، قريرَ العينِ برويَّاهمِ والتحدُّثِ إليهم . فلننترُكه حينئذٍ ترفِيفٍ عليه القناعةُ ، ولننعدَّ إلى « سَكْرُوجِ » التاجرِ ؛ لنعرفَ ما كان من أحلامه المزعجة ليلةَ عيدِ المِيلادِ .

(١) وجه . (٢) جمع قدح وهو ما يشرب فيه . (٣) غناء .

رَأَى التَّاجِرُ فِي نَوْمِهِ أَنَّ رُوحَ الْعِيدِ أَرْتَه مِنْزِلَ كَاتِبِهِ ،
فَرَمَقَ^(١) الْأَطْفَالَ جَائِعِينَ^(٢) بِالْقُرْبِ مِنَ النَّارِ بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنَ
الطَّعَامِ ، وَهُمْ يَشْرَبُونَ نَجْبَهُ ، كَمَا سَمِعَ غِنَاءَهُمْ ، لَا سِيمًا أَغْنِيَهُ « تِم »
الرَّقِيقَةَ الْعَذْبَةَ . وَفِي أَحْلَامِهِ الْمَزْعُوجَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَدْ طَافَتْ رُوحُ
التَّاجِرِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مُيُوتِ الْفُقَرَاءِ ، فَشَاهَدَتْ أَرْوَاحًا مُتَبَايِنَةً لِمُخْتَلَفِ
طَبَقَاتِ النَّاسِ . وَتَوَّأَ عَادَتْ بِهِ ثَانِيَةً إِلَى كُوخِ كَاتِبِهِ الْفَقِيرِ « بُوب » ،
فَوَجَدَ زَوْجَهُ جَالِسَةً بِجَانِبِ الْمَائِدَةِ ، تَقُومُ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ الْيَدَوِيَّةِ ،
وَالدَّمُوعُ تُتَخَدَّرُ عَلَى وَجْنَتَيْهَا تَنْعَى حَظَّهَا وَتَقُولُ : « إِنَّ كَثْرَةَ الْعَمَلِ
بِالْإِبْرَةِ أَضْرَتْ بَعِيْنِي » . وَرَأَى الْأَطْفَالَ جَالِسِينَ وَالْوُجُوهَ^(٣) مُنْجِمًا
عَلَى رُءُوسِهِمْ ، وَالْحَزْنَ يُعَلُّو وَجُوهَهُمْ ، وَالذَّلَّةُ وَالْمَسْكِنَةُ تَمْلِكَانِ
شِعَابَ أَنْفُسِهِمْ . فَجَالَ يَبْصُرُهُ فِيهِمْ لِيَنْظُرَ « تِم » ، فَلَمْ يَمُتْرْ عَلَيْهِ
بَيْنَهُمْ ؛ إِذْ ذَهَبَ إِلَى فِرَاشِهِ . ثُمَّ شَاهَدَ كَاتِبَهُ فِي حَجْرَةِ نَوْمِهِ
وَقَدْ مَالَ بِرَأْسِهِ كَثِيبًا حَزِينًا ، كَاسَفَ الْبَالِ ، مُنْخَفِي وَجْهَهُ بَيْنَ
كَفْيَيْهِ ، بِجَانِبِ سُرِيرِ صَغِيرٍ تَوَسَّدَهُ طِفْلٌ وَدِيعٌ ، يَلْبَسُ مَلَابِسَ
بِيضَاءَ ، تَرْعَاهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ .

أخذ الأبُ يبكي وقَطَرَاتُ الدمعِ تَذْرِفُ^(١) من مآقيه ويتفوه:
« طفلي الوداع الصغير ! ولدى الهادئ الجميل ! قد افتقدتُ ضحيةَ
فقري ، ولو كنتُ ثرياً^(٢) لعرَضْتُكَ على الطيب . » ثم انحنى
على ابنه ، وطبع على وجهه الباسمِ قُبلةَ الثاكلِ الحزينِ ، قُبلةَ
الوداعِ الأخيرِ . وغادَرَ الحجرةَ إلى الطبقةِ السفلى ، ليُحضِرَ بعضَ
الأزهارِ المقدَّسةِ التي لا تزالُ في غرفةِ الطعامِ المتواضعةِ .

بعد ذلك أمسك بقبعته وخرج حزينا قد ملأه الأسى ، وهو
يرثو^(٣) إلى هراوة صغيرة ووضعت في أحد أركان البيت كان
ينحنى عليها « تم » الكسيح ، وأغلق الباب خلفه .

رأى التاجرُ ذلك كله في حلمه ، وهو يغط في نومه ، بل
شاهداً أكثر وأروع ؛ من رؤى^(٤) تنفطر منها القلوب ، وتصدع
لها الأفئدة ؛ فقد أرتته الروح في رحلتها كل ما يمكن أن يرى
في بيوت المعدمين المُقلِّين^(٥) ليلة العيد .

وقد خرج التاجرُ من هذه المعركة الدامية شخصاً جديداً ،
مختلفاً كل الاختلاف ؛ إذ استيقظ وقد تغيَّرت حاله ،

(١) تسيل (٢) غنيا (٣) ينظر إلى (٤) جمع رؤيا (٥) الفقراء

وتبدلت نظرته الأولى في الحياة ، وأضحى رجلاً آخرَ يشعرُ بما لم يشعرُ به من قبل ، ويرى نفسه قد ابتدأت عهداً جديداً لم يكن لها بالأمس ؛ فقد أصبحَ لديها شعورٌ كريمٌ ، وإنسانيةٌ عاليةٌ ، وإحساسٌ نبيلٌ . تلك حياةُ التاجر الثانيةُ التي هبطت عليه من السماء ، فقال لنفسه : « لماذا أجدني اليومَ نشيطاً ، كقديسٍ طاهرٍ ، مرححاً كتلميذِ المدرسةِ . أرجو عيداً سعيداً لكلِّ فردٍ ، وعاماً سعيداً لجميعِ العالمِ . »

وبعد برهةٍ^(١) اشترى ديكا رومياً سميناً ، لم يستطع الخادمُ حملَه ، فأرسله في عجلةٍ هديةً لمنزلِ « تم » الكسيحِ .

شاطرَ الأبُ أبناءه جذلهم^(٢) يومَ العيدِ . ولما أصبحَ صباحُ اليومِ التالي ذهبَ إلى مكتبه متأخراً بضعَ دقائقَ عن مواعده ، فانتابته^(٣) الهمومُ ، واستولى عليه النغمُ ، وخشى بأْسَ « سكرُوج » وقوارصِ كلبه اللاذعةِ . ولكن ما إن وطئت قدماه أرضَ المكتبِ ، حتى وجدَ سيده متقمصاً^(٤) شخصيةً أخرى ، فأصبحَ لطيفاً في معاملتهِ ، رقيقاً في حديثه ، قامَ إليه وقابلهُ بسيلٍ من

(١) مدة من الزمان (٢) فرحهم . (٣) انتابته : أتتهُ مرةً بعدَ أخرى

(٤) متخذاً له ، منتحلاً

الإحساس الرقيق ، والشعور الحى ، ووَعَدَهُ أَنَّهُ سِيرَفَع رَاتِبَهُ ،
وَسَأَلَهُ بِإِخْلَاصٍ عَنِ صِحَّةِ « تِم » ، وَلَدِهِ الصَّغِيرِ . ثُمَّ تَرَكَهُ وَهُوَ
يَقُولُ : « لَا تَنْسَ « يَا بُوبُ » أَنْ تُشْعِلَ نَارًا قَوِيَّةً فِي حَجْرَتِكَ
قَبْلَ بَدءِ الْعَمَلِ ، حَتَّى لَا يَضْرُكَ الْبَرْدُ . »

حَارَ « بوب » فِي أَمْرِ سَيِّدِهِ ، وَاتْقِلَابِهِ الْفُجْأَتِيَّ ، مِنْ رِقَّةٍ
بَعْدَ غِلْظَةٍ ، وَلِينٍ بَعْدَ شِدَّةٍ ، وَرَحْمَةٍ بَعْدَ قَسْوَةٍ ، وَجُودٍ بَعْدَ
بُخْلِ ؛ فَلَمْ يَمْتَقِدْ مَا شَهِدَتْهُ عَيْنُهُ ، وَسَمِعَتْهُ أُذُنُهُ ، وَلَكِنَّ الْأَيَّامَ
حَقَّقَتْ ذَلِكَ . فَوَفَى الرَّجُلُ بِوَعْدِهِ ، وَعَطَفَ عَلَى كَاتِبِهِ ، وَزَادَ
رَاتِبَهُ . فَانْقَلَبَ حَالُ أُسْرَتِهِ مِنْ بُؤْسٍ وَفَاقَةٍ ، إِلَى عِزٍّ وَسَعَادَةٍ ؛
وَمِنْ فَقْرٍ وَحِزْمَانٍ ، إِلَى نَعِيمٍ وَيَسَارٍ . وَلَمْ يَمْتَ « تِم » كَمَا كَانَ
يَحْلُمُ أَبُوهُ ، بَلِ بَقِيَ يَتَمَتَّعُ بِالْحَيَاةِ ، نَاعِمًا فِي ظِلِّ وَالِدَيْهِ ، سَعِيدًا
بِجَوَارِ إِخْوَتِهِ — بَعْدَ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى الطَّيِّبِ ، فَفَحَصَ عَنِ الدَّاءِ
وَوَصَفَ الدَّوَاءَ .

عَادَتْ إِلَى الطِّفْلِ قُوَّتُهُ ، فَأَضْحَى قَوِيَّ الْبِنْيَةِ ، مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ ،
يَرْتَعُ فِي مُجْبُوحةِ الْعَيْشِ الرَّغْدِ^(١) ، وَيَتَفَيَّأُ ظِلَالِ الْحَيَاةِ الْهَيِّنَةِ ،

(١) الواسع الطيب .

تَخْفُقُ عَلَى أُسْرَتِهِ السَّعِيدَةِ أَجْنَحَةَ الْحُرِّيَةِ الْمُطْلَقَةِ بَعْدَ أَنْ طَوَّقَهَا
الذُّلُّ بِقَيْودِهِ وَأَغْلَالَهُ رَدَحًا^(١) مِنَ الزَّمَنِ . وَتَقْدَرُ تَغْيِيرَتُ حَيَاةِ هَذِهِ
الْأُسْرَةِ فِي كَنْفِ الرَّجُلِ الْجَدِيدِ ؛ رَجُلِ الْمَرْوَةِ وَالْإِحْسَانِ
السَّيِّدِ « سَكْرُوجِ » الَّذِي أَحَبَّ « تَمِّمَ » حُبًّا جَمًّا ، وَتَبَنَّاهُ فَبَادَلَهُ
رِسَالَةَ الْأَبُوَّةِ الْحَقَّةِ .

وَهَكَذَا تَغْيِيرَتُ طَبِيعَةِ السَّيِّدِ « سَكْرُوجِ » فَأَصْبَحَ إِنْسَانًا
كَرِيمًا ، يُحِبُّ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ ، وَيُعْطِفُ عَلَى الْبَائِسِينَ
وَالْمُعْزِزِينَ^(٢) ، مُنْذُ ذَلِكَ الْحَلْمِ الْمُنْزَعِجِ لَيْلَةَ الْعِيدِ .

(١) رَدَحًا : طَوِيلًا مِنَ الزَّمَنِ . (٢) الْفُقَرَاءُ .

الْقِصَّةُ الثَّامِنَةُ

مخاطرة « پيب »

أو

لا يَضِيعُ جَمِيلٌ أَيْنَا مُوضِعٌ

نودى « فيليبُ پيرب » باسم « پيب » ، واشتهرَ بين أترابه^(١) بهذا الاسم . ولم يكن يعرف من أمر أبيه وأمه وإخوته الصغار سوى أسماءهم التي رآها منقوشةً على لوحات المقابر في مدفن الكنيسة . وقد عاش في كنف أخته الكبرى ، تحوطه برعايتها ، وتُغنى بشؤونه مع زوج طيب القلب ، رقيق العاطفة ، نبيل الإحساس . وكان قيناً^(٢) يدعى « چوجر جري » في قرية تبعد عن البحر عشرين ميلاً . وعلى الرغم من حُسن خلقه ، ولين طباعه كانت زوجته غليظة القلب ، جافية الطبع ، تُسيء معاملته ، وتقسو على أخيها .

وفي أصيل^(٣) يوم اشتدَّ برده خرج « پيب » - ولم يتجاوز

(١) الترب بالكسر : اللدة ، ومن وُلد معك (٢) حدادا .

(٣) الأصيل : الوقت بعد العصر إلى المغرب

السابعة من عمره — لزيارة قبرِ والدَيْهِ وإخوته ، وأخذَ يُحاولُ
 تعرُّفَ تلكِ النقوشِ المحفورةِ على رُمُوسٍ^(١) أُسْرتهِ ، وسرعان
 ما غرَبَتِ الشمسُ ، وأقبلَ الليلُ يَمْجُو آيةَ النهارِ ، فشعرَ بالوَحْدَةِ ،
 واستولى عليه الفزعُ من رَهْبَةِ المكانِ ، فبَكَى وعلا صوتُهُ
 بالنَّحِيبِ^(٢) ، فتصدَّى له رجلٌ — لم تَقَعْ عليه العينُ قبلُ من بينِ
 الأجداتِ^(٣) — بِشِعْ المنظرِ ، مُصَفِّدًا^(٤) بالأغلالِ ، يرتدى لباسَ
 السُّجْناءِ . وقد لاحتْ عليه أماراتُ الشَّقَاءِ ، وعلاماتُ البُؤْسِ
 والهوانِ ، ترتعدُ فرائضُهُ^(٥) من شِدَّةِ الزَّمْهِرِ ، وتصطكُ أسنانهُ
 من قَسْوَةِ القُرِّ ، وقال له بصوتٍ مُخِيفٍ : « قِفْ مكانك أيها
 الغلامُ الصغيرُ ، ولا ترفعْ صوتك ، وإلا . . . » ثم خطا نحوه
 والشررُ يتطايرُ من عينيه ، ومِرْجَلُ الغضبِ يَنْعَلِي في صدره ،
 وزأرَ بصوتٍ مُخِيفٍ كأنه الرُّعدُ حينما وضعَ أصابعه في عُنقِهِ ،
 فصاح « ييب » خائفاً وجِلاً : « بالله لا تقتلني يا سيدي ! »
 فسأله الرجلُ : « أخبرني ما اسمك ؟ أسرع ! » فأجابهُ الصبيُّ :

(١) الرُّمُوسُ : تراب القبر
 (٢) النحيب : رفع الصوت بالبكاء
 (٣) الجدات : القبر (٤) مفيد وموثق بالقيود (٥) الفريضة لحمة بين
 الجنب والكف لا تزال ترتعد من الدابة

اسمى « ييب ». « فلم يتبين الرجلُ ما قاله الصبيُّ ، وحمَلتُ^(١) في وجهه قائلاً : « ارفع صوتك ! » فرفع صوته والرَّوع يملأُ فؤاده .

فقال الرجلُ : « أين تسكنُ ؟ وفي أيِّ مكانٍ تعيشُ ؟ » فأشارَ « ييب » إلى قريةٍ تبعدُ ميلاً أوْ أكثرَ عن الكنيسةِ .

صوبَ^(٢) الرجلُ نظره نحوَ القريةِ بُرْهةً^(٣) ولم يلبث أن توجهَ إليه ، وأخذ يفتشُ جيوبه ، فلم يجد فيها سوى قطعة من الخبزِ التقمها بنهمٍ^(٤) وشره ، وأخذ يُتمِّمُ بعباراتِ شعرِ الصبيِّ منها أن لا مناصَ من قتله ، فتضرَّع^(٥) إليه أن يرحمه ويتركه إلى حيث شاء ، فتوقفَ الرجلُ وسأله : أين أمك ؟

فأجاب « ييب » : « أمي تُوفيتُ وجُثمانها في هذه المقبرة . » وأشارَ إليها . ففكر الشقيُّ في الهربِ وفي تركه . ثم وقف ونظر حوله وسأله : « أهذا أبوك المدفونُ بجانب أمك ؟ »

فقال ييب : « نعم ياسيدي ! » فطأطأ الرجلُ رأسه ، وقال مُتعجباً : « مع من تعيشُ حينئذٍ إذا خلَّيتُ سبيلك وتركتك لتعيش ؟ »

(١) حملت : فتح عينه ونظر نظراً شديداً (٢) اتجه بنظره (٣) مدة من الزمان

(٤) النَّهَم : لإفراط الشهوة في الطعام (٥) ابتهل

يببُ : « أَعِشْ مَعَ أُخْتِي قَرِينَةَ الْحَدَّادِ . » فَارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ دَهْشَةٌ ، وَنَظَرَ إِلَى رِجْلَيْهِ الْمُكَبَّلَتَيْنِ (١) بِالْأَصْفَادِ (٢) ، ثُمَّ قَبِضَ عَلَى الطِّفْلِ وَهُوَ يَتَرَجَعُ إِلَى الْوَرَاءِ فَرَقًا (٣) يَحَاوِلُ أَنْ يَفِرَّ مِنْهُ ، وَحَلَقَ (٤) فِيهِ قَائِلًا : « الْآنَ مَا زِلْتُ أَفَكِّرُ ؛ هَلْ أَدْعُكَ حَيًّا أَمْ لَا ؟ أَتَعْرِفُ الْمِبْرَدَ ؟ . »

يبب : « نعم »

الرجلُ : « وهل تعرفُ الطَّعامَ ؟ »

يبب : « نعم »

الرجلُ : « يجبُ أَنْ تُحْضِرَ لِي مِبْرَدًا وَطَعَامًا . »

دَارَ هَذَا الْحَدِيثُ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَى (يِبْب) الْمَسْكِينِ حَتَّى كَادَ يُعْمَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « إِيَّاكَ وَالتَّهَاوُونَ فِيمَا طَلَبْتُ . غَدًا فِي الصَّبَاحِ الْمُبَكَّرِ أُرَاكَ حَامِلًا مَا أُرِدْتُ . وَإِيَّاكَ أَنْ تُخْبِرَ أَحَدًا بِشَأْنِي أَوْ تُعَلِّمَهُ مَكَانِي . سَوْفَ أَتْرُكُكَ حَيًّا إِذَا نَفَّذْتُ رَغْبَتِي . » فَوَعَدَهُ « يِبْب » بِشَرْفِهِ أَنْ يَجِيبَ رَغْبَتَهُ ، وَيَكْتُمَ سِرَّهُ . حِينَئِذٍ خَلَّى الرَّجُلُ سَبِيلَهُ قَائِلًا : « تَذَكَّرُوا مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، وَلَا تَنْسَ مَا تَعَهَّدْتُمْ بِهِ . إِذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ آمِنًا تَصْحَبُكَ الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ . »

(١) المقيدتين (٢) القيود ، مفردهما صَفَدٌ (٣) خوفًا (٤) فتح عينيه ونظرًا شديدًا .

فِيَاءَ «يبب» تحية المساء، وأسرعَ في عَدْوِهِ^(١) مخافةً أن يُمِيرَ
رأيه فيلحقه ويوقع به الأذى . ولكنَّ الرجلَ قال : « يكفى ذلك . »
وقد سرَّح طرفه^(٢) في الفِضَاءِ حين اشتدَّ البرْدُ ، وتراكم الصَّقِيعُ على
وَجْهِ الأَرْضِ ، وتَمَتَّى لو كان صِفْدِعةً تَحْتَمِي بالأعشابِ ، أو جُرْدًا^(٣)
يَأْوِي إلى الأَجْحَارِ .

وصل «يبب» إلى المنزلِ على عَجَلٍ ، وصعد في السلمِ إلى
حُجْرَتِهِ ، فوجد صهره جالساً ينتظره ، فأخبره بأن أخته قد خرجت
باحثةً عنه والعصا في يديها ؛ لتعاقبه جزاء تأخره إلى غَسَقِ^(٤) الليلِ .
فوقع هذا النبأ في نفسه موقعَ الألمِ ، ووقفَ في جانبٍ من
الْعُرْفَةِ مشدوهاً^(٥) ، حتى أتت تُصعدُ زفراءَ الغضبِ ، وما إن وقع
نظرها عليه حتى أقبلت عليه بالعصا تذيقه مرارتها .

أعدت الزوجة (الشاي) ، ودعت زوجها وأخاها لشربه ، ثم
تناولت قطعةً كبيرةً من الخُبْزِ والزُّبْدِ قسّمتها بينهما ، فاتهمز
«يبب» الفرصة وأخفى نصيبه ليقدمه للصَّ وَفَاءً بوعده ، وبراً
بعمده . ظنَّ الزَّوْجُ أنه قد التقم الخُبْزَ دفعةً واحدةً ، فأسدى إليه

(١) جريه (٢) عينه (٣) الجُرْدُ : ضرب من الفأر ، والجمع جِرْدَان
(٤) أول ظلمة الليل . (٥) حاراً مدهوشاً .

النصحَ قائلاً: « صغرُ اللقمةِ يا «يبب» ، ولا تُسرِعْ في الأكلِ ،
وامضُغِ الطَّعامَ جيِّداً ، وإلا وقعتَ في الضَّررِ ، وتعبتِ معدتُكَ .
أنتِ تعلمُ مغبَّةَ^(١) الإسراعِ في الأكلِ وعدمِ المضغِ جيِّداً ، كما
تعرفُ مقدارَ حُبِّي وإخلاصي لك . لقد محضتُك^(٢) النصيحةَ . »

فصاحتِ أختُه « هل كان يتبلعُ طعامَه ؟ »

فقال (چو) : « حينما كنتُ صغيراً كنتُ أزدرد^(٣) الطَّعامَ
مثلَكَ ازدرداداً ، وإنك لا تزالُ أقلَّ من كثيرٍ من الأطفالِ في
التقايِمِ الطَّعامِ . »

فقامتِ الزَّوجُ وهى تكاد تميز^(٤) من الغيظِ ، ونفسُها تغلي
غضباً ، وقبضتْ على أخيها ، وجذبتْه من شعرِه ، وانهاالتْ عليه
تمنيقاً وتويخاً . كان ذلك في ليلةِ العيدِ — وهى الليلةُ التى همَّ فيها
« ييبب » بالوفاءِ بوعدِه — فكان عليه أن يُحرِّكَ حَلْوَى العيدِ بين
الساعةِ السابعةِ والثامنةِ ، ولكنَّه وجد أن قطعةَ الخبزِ تحوُلُ بينه
وبين المِضىِّ في سبيلِه ، فخرجَ خُلُسةً ، وذهبَ إلى حجرةِ نومِه
خفياً القطعةَ فيها .

جاء مبعأد النوم فذهب « ييب » إلى فراشه ، عل طيف الكرى^(١) يمر بأجفانه ، واكن أنى له ذلك وهو مبلبل الخاطر ، مشتت الفكر ، كثير الهواجس ، شارد اللب مما عساه أن يكون من أمر نزيل المقبرة المكبل بالحديد . وما زال كذلك حتى طلع الفجر ، فانس من فراشه ، وغادره بهدوء ورفق وهو يتخيل أن كل شىء بالمنزل يحدق^(٢) إليه بالنظر ويقول : « أوقفوا هذا اللص . استيقظي يا (مسزچو) لترى ما يفعله أخوك . » وقبل أن يرتد طرفه أخذ « ييب » قطعة كبيرة من الخبز ، وأخرى من الجبن ، وثالثة من اللحم ، وبعضاً من فطير محشو باللحم مما جهزته أخته لضيوفها ، وغير ذلك مما لذ طعمه ، وطاب مذاقه من طعام شهى ، وشراب لذيذ . ثم أتى بالبرد ، وحمل الكل ، وسار في طريقه إلى حيث ينتظر ذلك السجين الهارب .

خرج « ييب » في الصباح الباكر ، حيث البرد قارس ، والطريق وعر ، والجو ملبد بالضباب الكثيف ، وخيال الرجل لا يبرح فؤاده ؛ فقد ظن أن كل الحيوانات التي مر بها تنظر إليه ، وكان لسانها يقول : « أين تذهب أيها اللص الصغير ؟ »

(١) النعاس (٢) يشدد النظر إليه .

سَارَ حَتَّى اعْتَرَضَهُ نُورٌ أَسْوَدُ اللَّوْنِ، مُخَطَّطُ الْإِهَابِ^(١)، تَمَّ نَظْرَاتُهُ
عَنْ رِيْبَةٍ فِي أَمْرِ الصَّبِيِّ . فَارْتَاعَ « يَيْبُ » وَمَلَأَ الْخَوْفُ قَلْبَهُ ،
فَتَقَدَّمَ إِلَى الثَّوْرِ قَائِلًا : « إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ خَارِجٌ عَنْ إِرَادَتِي ، وَلَمْ آخِذْ
ذَلِكَ لِنَفْسِي . » فَأَخْنَى الثَّوْرُ رَأْسَهُ ، وَزَفَرَ مِنْ أُنْفِهِ سَحَابًا كَالدُّخَانِ ،
ثُمَّ اخْتَقَى وَهُوَ يُحْرِكُ ذَنْبَهُ .

وَصَلَ « يَيْبُ » إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَوَجَدَ الرَّجُلَ يَنْتَظِرُهُ عَلَى أَحْرٍ
مِنَ الْجَمْرِ ، وَالْجُوعُ كَادَ يَذِيْقُهُ الْمَوْتَ ؛ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الطَّعَامَ ،
وَمَا لَبِثَ أَنْ تَنَاوَلَهُ بِشَرِّهِ وَنَهَمَ اسْتَرْعَى نَظَرَ « يَيْبُ » فَقَالَ :
« إِنِّي مَسْرُورٌ لِأَكْلِكَ بِشَهِيَّةٍ » .

الرَّجُلُ : « شَكَرًا لَكَ يَا بَنِيَّ ؛ فَقَدْ أَدْرَكْتَنِي بَعْدَ يَأْسٍ ،
وَأَنْقَذْتَنِي مِنَ الْمَوْتِ . »

وَلَمَّا فَرَعَ الرَّجُلُ مِنْ طَعَامِهِ ، تَنَاوَلَ الْمِبْرَدَ ، وَأَخَذَ يَبْرُدُ أَغْلَالَهُ^(٢) ،
وَلَكِنْ « يَيْبُ » خَشِيَ التَّأَخَّرَ فِي الْعُودَةِ ، فَأَسْلَمَ سَاقِيهِ لِلرَّيْحِ ،
وَعَادَ أَسْرَعَ مِنَ الْبَرْقِ الْخَاطِفِ .

أَخَذَ « يَيْبُ » يُفَكِّرُ فِيمَا أَلَمَّ بِهِ مِنْذُ الصَّبَاحِ ، تَقَرَّعُ أُذُنَيْهِ فِي

(١) الْجِلْدُ مَا لَمْ يَدْبِغْ (٢) قَبُودُهُ .

كل لحظة أسئلةُ أخته عن الفطيرِ الذي أخذَه ، ولكنها كانت في شغلٍ عنه بإعدادِ مائدةِ الغداءِ لبعضِ الزائرين ؛ فقد هيأت لهم من اللحمِ المملحِ ، وبعضِ الخُضَرِ ، والدجاجِ السمينِ والعصيدةِ^(١) اللذيذة - طعاماً شهيئاً .

تناولَ الزائرون طعامهم والفرحَ يغمُرهم ، وأماراتُ البشرِ تعلو وجوههم . وقُبيلَ نهايةِ الطعامِ شعرَ « ييب » بأنه قد حانَ وقتُ افتضاحِ أمره ؛ فقد قالت أخته في رقّةٍ ورشاقةٍ لضيوفها : « سأخضِرُ لكم هديةً لذيذةً جميلةً هي فطيرةٌ محشوةٌ باللحم . » فلم ينتظرْ ليسمعَ من أخته أكثرَ من ذلك ؛ بل غادرَ المائدةَ خفيةً إلى البابِ ، فقابلته جماعةٌ من الشرطِ ، خرجتْ للبحثِ عن مجرمينِ من الأشقياءِ ؛ فرأتْ تحتَ جُنْحِ الليلِ من عنتِ^(٢) السجنِ وقسوةِ الحياةِ فيه ، وانقطعَ السجنِ عن العالمِ . وقد أمسكَ أحدهمَ بيده زوجاً من الأغلالِ الحديديةِ أفسدتها هذان الشقيان . وبينما كانت المضيفةُ ذاهبةً لتخضِرَ هديتها الجميلةَ ، سمعتْ جلبةً وضوضاءً أنسها ما ذهبتْ إليه ، فاتجهتْ شطرَ^(٣)

(١) سميت بذلك لأنها تصعد أي تقلب وتلوى

(٢) إم ، عذاب (٣) نحو الباب .

البابِ ، فَإِذَا الشَّرْطُ واقفون مع « ييب » ، فَأَسْرَعَتْ نَحْوَمِ
وسألتهم : « ما خَطْبُكُمْ ^(١) ؟ » فَأَجابها أَحَدُهُمْ : « إِنَّا نريدُ « جُو »
لِإِصْلاحِ القَيْدِينَ . » فَعادَتْ إلى ضيوفها ذاهلةً حَيْرَى ^(٢) ،
لَمْ تُحْضِرْ لَهُمْ ما وَعَدْتَهُمْ بِهِ .

خَرَجَ « جُو » إِلَى الشَّرْطِ ^(٣) ، فَأَصْلَحَ القَيْدِينَ ، وَذَهَبَ فِي
مُصْجَبَتِهِمْ مَعَ أَحَدِ ضُيُوفِهِ لِلْبَحْثِ عَنِ هَذَيْنِ المَجْرِمِينَ ، وَقَدْ حَمَلَ
مَعَهُ « ييب » عَلَى ظَهْرِهِ .

هَمَسَ « ييب » فِي أذُنِ « جُو » : « إِنِّي آمَلُ بِأَنَّ « جُو » أَلَّا نَجِدَهُمَا . »
فَأَجابَ : « إِنِّي سَأَمْتَحُك (شِلْنَا) مَكافَأَةً إِذا كانا قَدْ قَطَمَا
أَعْلاهُمَا وَفَرَّآ . »

وَلَكِنْ سُرْعانَ ما قَبِضَ عَلَيْهِما الشَّرْطُ ، وَكانَ أَحَدُهُما ذَلِكِ
الشَّقِ التَّعَسِ الَّذِي عَرَفَهُ « ييب » . فَلَمْ يَكَدْ يَقَعُ نَظْرُهُ عَلَيْهِ ،
حَتَّى هَزَّ الطِّفْلُ رَأْسَهُ مُحاولاً أَنْ يُفهِمَهُ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً ، وَلَمْ يَبْح ^(٤) ،
إِلَيْهِمْ بَسْرَهُ ، وَلَكِنَّ المَجْرِمَ أَخْبَرَ الشَّرْطِيَّ بِأَنَّهُ يَريدُ الإِقْرارَ بِشَيْءٍ
قَبْلَ أَنْ يَقْتادُوهُ إِلَى السَّجْنِ لِيَمْنَعَ الشُّبْهَةَ عَنِ غَيْرِهِ ، فَقالَ :

(١) ما أمركم ؟ (٢) حائرة (٣) الشرط جمع ، مفردة شرطة وشرطي
(٤) باح بسرته : أظهره ، وبابه قال .

« إني في الليلة الماضية قد سَطَوْتُ على منزلِ الحدَّادِ ،
فسرقتُ منه بعضَ الطعامِ . » وبينَ الأشياءِ التي ادَّعى أنه سرَقها .
والحقُّ أن الفلامَ أحضرَها له .

فسألَ الشرطيُّ : « هل فقدتَ هذه الأشياءَ أيها الحدَّادُ ؟ »
قال : « نعم ، إن زوجي فقدتَ ذلك ؛ فقد كانت تبحثُ عن
الفطيرةِ قبلَ مجيئِكَ فلم تجدها . أليس كذلك يا « ييب » . »
فقال المجرمُ وقد نظرَ إلى « چو » : « إذا أنتَ الحدَّادُ . أنا
أسفٌ لأن أقولَ : إني قد اضطرَّرتُ إلى أكلِ فطيرتِكَ . »
فقال (چو) : « الله يعلمُ أني مسرورٌ بأكلِكَ إياها ، وما كنتُ
أودُّ أن تموتَ جوعاً من أجلِ فطيرةِ أيها الرَّجلُ المسكينُ البائسُ .
ثم اقتادَ الشرطُ السَّجينَ ، وأعادوهُ إلى سِجْنِهِ ، وحملَ « چو »
« ييب » ، ورجعَ إلى المنزلِ .

توالَّت السَّنُونُ ، وتتابعتِ الأعوامُ ، وحياتُ « ييب » مُفعمَةٌ^(١)
بالحوادثِ ، مملوءَةٌ بالمخاطرِ لولا أن العنايةَ الإلهيةَ كفلته حتى صارَ
شاباً يافعاً ، فأرسلَ إليه صديقٌ مجهولٌ — وهو لا يزالُ في ميعَةِ
الصِّبَا^(٢) — نقوداً ليُنْفِقَها في تعليمه ؛ كي يكونَ رجلاً مُثَقِّفاً .

استمرت النقودُ تردُّ إليه دون أن يَعْرِفَ لها مصدراً، أو يتبينَ لها مورداً. فغمَرته الدهشةُ ومن معه، وحَسِبَ أولَ الأمرِ أنها آتيةٌ من قِبَلِ سَيِّدَةٍ عَجُوزٍ صَدِيقَةٍ، ولكنَّ التَّضَحَّحَ خطأً زعمه عند ما جاوزَ العشرينَ عاماً من عمره؛ فقد انجَلَّت الحقيقةُ، وانكشفَ السُّرُّ، فعرفَ أنه ذلك الرجلُ المسكينُ الذي أنزلَ الرَّعْبَ^(١) بين حَنَائِيا فُوَادِهِ في تلكَ اللَّيْلَةِ القارسِ بَرْدُهَا، الحالكِ سوادُهَا، ليلة عيد الميلادِ .

قال «بيب» : « ذاتَ ليلةٍ شرَعْتُ في تركِ كِتَابِي على المكتبِ، وكانت الساعةُ الحاديةَ عشرةَ مساءً . فسمِعْتُ فجأةً وقعَ أقدامٍ على درجاتِ السُّلَّمِ، فمرَّ بخاطري أنها لأختي . ولا أدري كيف خطرَ ذلك بيالي . ثم أرهَفْتُ^(٢) أذني ، فإذا الخطواتُ تتعزُّزُ . تَدَكَّرْتُ أن نورَ السُّلَّمِ مُطْفَأٌ ، فأخذتُ مُصْبَاحَ المِطَالَعَةِ ، وخرجتُ أُضِيءُ للصَّاعِدِ وسطَ هذا الهدوءِ الشاملِ ، وهذه الطَّبيعَةِ الصامتَةِ . وسرعاناً ما توقَّفَ عن الصُّعُودِ فسألتُ :

« أهناك رجلٌ على السُّلَّمِ ؟ »

فأجابَ صوتٌ في الظَّلامِ : « نعم »

(١) الفزع ، الخوف (٢) أصغيت كل الإصغاء

يُيب : « آيةَ طبقةٍ تريد ؟ »

الرجلُ : « الطبقةُ العليا أيها السيدُ النَّابِه (يُيب) .

يُيب : « هذا اسمي . أحدثَ شيءٌ ؟ »

الرجلُ : « كلاً ! لم يحدثْ شيءٌ . »

« ابتداءُ الرَّجَلِ يُتمُّ صعودَه ، وأنا في انتظارِه بمصباحي الضئيلِ
الذي لا يصلحُ إلا للقراءة . فشاهدتُ عن كَشِبٍ^(١) رجلاً غريباً ،
يبدو عليه التأثيرُ لرؤيتي ، والسرورُ بِلِقائِي .

تحرَّكتُ نحوَه ، وتحركَ نحوِي ؛ فإذا هو يرتدي اللباسَ
الضرريَّ ؛ كأنه قادمٌ من رحلةٍ بحريةٍ . وشعرُه طويلٌ أشهبٌ ،
أسمرُّ اللونِ من التعرُّضِ للشمسِ والهواءِ . يناهزُ^(٢) عمرُه الستينَ ،
تلوح عليه سِيباً^(٣) الرُّجولةِ ، ودلائلُ القوةِ . ارتقى السلمَ ، ومدَّ يده
يُصافحُنِي بشغفٍ زائدٍ ، وتلهفٍ كثيرٍ . فعمجبت لأثره ، واستولى
على الدهشِ^(٤) مع شيءٍ من الخوفِ والقلقِ . سألتُه : « ماذا
تريدُ يا سيدي ؟ »

فأجاب بعد تفكيرٍ ورويةٍ : « سوفَ أخبرُك يا بُنَيَّ بعدُ . »

يُيب : « أتريدُ أن تمكثَ معنا الليلةَ ؟ »

الرجل : « نعم . »

كان في سؤالى شئ يدلُّ على النفورِ والفرع ؛ فقد استأثتُ من
شدة تعلقه بي وأنا لا أعرفه . ولكنى قدتُه إلى حجرتى ، ووضعتُ
المصباحَ على المكتبِ ، وطلبتُ منه أن يشرحَ لى حاله .

أخذ يُجيبُ^(١) الظرفَ قليلاً حوله وهو متعجبٌ ، فتملكتُه
حيرةٌ خالطها السرورُ . ولم أكن أقلُّ منه استغراباً . ثم خلع معطفه
وقبعتُه ، فبدأ أصلع الرأسِ ، مُسترسِلَ الشعرِ من الجوانبِ . ولم
يُلبِّ طلبتى ، بل شرعَ يمدُّ يديه إلىَّ ، فصيححتُ مذعوراً - وقد
ظننتُ أنه مخبولٌ : « ماذا تقصدُ ؟ »

فأشارَ الرجلُ بالصمْتِ ، ومسحَ رأسه بيده اليمنى ، وتكلمَ
بصوتٍ مُتهدِّجٍ^(٢) يغلبُ عليه التأثرُ : « إن من الخطأ أن تُحدِّثَ
إنساناً قطعَ مرَّحلةً طويلةً في سفرٍ شاقٍ بتلك اللهجة التي تدل على
سرعة في الحكم . وبعدي عن الأناة والتريث . ولكن لا لومَ عليك
ولا على . فاصبرِ يا بُنى . سأخبرُك بعد ثوانٍ معدودةٍ عما تريد . »
جلس الرجلُ على كرسيٍّ وُضعَ أمامَ الموقدِ ، وغطى جبهته
بيديه السَّمراوينِ فنظرتُ إليه نظرةً المُتعرِّفِ له ، ولكن لم
أستطع معرفته . ثم قال وهو يُديرُ البصرَ يمنةً ويسرةً :

(١) يُدير (٢) متهدج : متقطع في ارتعاش .

« لا أحد قريبٌ منا . أليس كذلك ؟ »

قلت : « لِمَ أتيتَ أيُّها الغريبُ إلىَّ في ذلك الوقتِ المتأخِّر من الليلِ ؟ فأوماً إلىَّ بنظرةٍ حبِّ وحنانٍ ، وقال :

« إني مسرورٌ بلقائكِ ورؤيتِكَ شاباً مُثَقِّفاً . لا تتسرَّع في الاستنباءِ مِنِّي والحُكْمِ عليَّ ، وإلا أسِفْتَ كثيراً فيما بعدُ علي ما حدَّثَ منك . »

فازدادَ عندى الأمرُ غموضاً ، وتعمَّدت في ذهني مُشكلةُ ذلك الرجلِ الغريبِ . وأخيراً لجأتُ إلى الماضي البعيدِ أستوجبه ما غابَ عني ، وأستنبئه عِلْمَ ما لم أعلم . ونصفتُ سِجلاً طُفولاتي ؛ عليَّ أجدُ فيه ما يكونُ عوناً لي علي تعرُّفه . ثم رددتُ طرفي إليه ، فعرفتُ فيه صورةَ الرَّجلِ المسكينِ الذي وقفتُ أمامه وجهاً لوجهٍ عند مدفنِ الكنيسةِ منذ سنواتٍ كثيرةٍ . ولكنَّ توارداً الأيامِ وتماقُبَ الحادِثاتِ غيرتِ سِحنته ، فلم أثبتتُ من حقيقته .

ترك الرجلُ مَجْلِسَه ، وأخذ يذرُع^(١) أرضَ الحجرِ ذهاباً وجيئةً ، وهو ينظرُ إلىَّ ، وقد أخرجَ من جيبه مِبْرَدًا ليريني إياه . ثم أخذ مندبلاً وضعه على رقبته ، ولفه حول رأسه ، فلم ألبث أن تيقنتُه ، وتحققتُ صورته .

أقبلَ الرَّجُلُ إِلَىَّ وقد قمتُ من مكاني ، وتناولَ يَدَيَّ بِلهْفَةٍ
وشوقٍ ، ورفعَهُمَا إِلَى شَفَتَيْهِ ، وقَبَّلَهُمَا ، ثم قال :

« لقد أسديتُ ^(١) إِلَىَّ مِنَ الْجَمِيلِ وَأَنْتَ طِفْلٌ مَا يُسَدِيهِ النَّبْلَاءُ .

إِنَّكَ نَبِيلٌ . يا « ييب » . فلا زلتُ أَذْكَرُ مَا قَدَّمْتَهُ إِلَىَّ يَوْمَ
العِيدِ عِنْدَ المَقْبَرَةِ ، وسَأَذْكَرُهُ مَا حَيَّيْتُ . » .

ثم أَخْبَرَنِي بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ النُّقُودَ لِأَتَعَلَّمَ فَأَصْبَحَ رَجُلًا
مُهَذَّبًا ، أَدِيبًا مُتَّقًا ؛ فَقَدْ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا وَمَوْتًا مِنْذَ أَنْ
التَّقَى بِي عِنْدَ المَقْبَرَةِ أَنْ يَتَوَلَّى تَرْبِيَّتِي ، وَالْقِيَامَ بِشُؤْنِي إِذَا قُدِّرَ
لَهُ الخُرُوجُ مِنَ السَّجْنِ . فَلَمَّا تَحَقَّقَتْ أَمْنِيَّتُهُ ، سَافَرَ إِلَى (أَسْتْرَالِيَا) .
وهُنَاكَ صَادَفَهُ حَسَنُ الحِظِّ فَكَانَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ . وَاسْتَمَرَّ يَحَدِّثُنِي :

« لقد تَبَنَيْتُكَ يَا « ييب » ؛ فَأَنَا أَبُوكَ الثَّانِي ، بَلْ أَنْتَ أَجْدَرُ
بِالْبُنُوَّةِ مِنْ أَيِّ ابْنِ آخَرَ . وَقَدْ ادَّخَرْتُ لَكَ الكَثِيرَ مِنَ المَالِ ،
وَحَفِظْتُكَ لَكَ حِينَمَا كُنْتُ أُسْكِنُ فِي كُوَيْخِ صَغِيرٍ مَنْعَزَلٍ عَنِ العَالَمِ ،
وَأَقُومُ بِرِعْيِ النِّعَمِ . وَقَدْ نَسِيتُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى وَجُوهَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَجْهَكَ البَاسِمَ ، وَشَخْصَكَ الوَادِعَ الَّذِي مَلَأَ المَكَانَ
أَنْسًا ، وَبَدَّدَ مَا فِيهِ مِنْ وَحْشَةٍ . »

وَكَنْتُ أَذْكَرُكَ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، وَأُتَحَيَّلُ صُورَتَكَ

(١) قَدَّمْتُ ، أَحْسَنْتُ

وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى عِنْدَ مَقْبَرَةِ الْكَنِيسَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ السَّوْدَاءِ .
وَكَلَّمَا ذَكَرْتُكَ أَكَدْتُ عُرَا الْمَهْدِ ، وَأَحْكَمْتُ الصَّلَاةَ ، حَتَّى
هَيَّا اللَّهُ لِي مِنْ أَمْرِي رَشْدًا^(١) ؛ إِذْ أُخْرِجَنِي مِنَ السَّجْنِ ، وَمَهَّدَ
لِي سُبُلَ الْوَفَاءِ . وَهَآنَذَا أَرَاكَ الْآنَ وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ فِيكَ أَمَلِي .
وَهَذِهِ آثَارُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ ؛ حَيْثُ هَيَّا لَكَ مَا تَسْتَحِقُّ مِنْ
النَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ .

« أَيْ نَبِيَّ ! إِنَّكَ سَتُصْبِحُ « لُورْدًا مِنَ الْلُورْدَاتِ » ؛ بَلِ
أَتَفَاءُلُ بِأَنَّكَ سَتَفُوقُهُمْ وَتَعْمَلُو عَلَيْهِمْ . »

ثم استطرَدَ في حديثه ، وقد أخذ الساعةَ من جَيْبِي ، ونظرَ
إلى الخاتمِ في إصْبَعِي وقال : « أَنْظِرْهُ إِلَى تِلْكَ السَّاعَةِ الذَّهَبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ !
أَنْظِرْهُ إِلَى الْخَاتَمِ الْمَاسِيِّ الَّذِي يَتَلَا فِي يَدِكَ ! إِنَّهُ خَاتَمُ رَجُلٍ نَبِيلٍ .
أَنْظِرْهُ إِلَى مَا لَدَيْكَ مِنْ أُنَاثٍ فَاجِرٍ ، إِنَّهُ بَلَغَ غَايَةَ الْجُودَةِ
وَالْإِحْكَامِ ، وَحُسْنِ التَّنْسِيقِ وَالْإِيقَانِ . »

ثم أخذَ يَنْظُرُ فِي نَوَاحِي الْعُرْفَةِ وَقَالَ :

« أَنْظِرْهُ إِلَى تِلْكَ الْمَكْتَبَةِ الْجَمِيلَةِ وَقَدْ جَمَعْتَ مِنَ الْكُتُبِ
الثَّمِينَةِ ، وَالْمَجَلَّاتِ النَّفِيسَةِ مَا سَأَلْتُذْ بِسَمَاعِهِ . وَسَأَسْعُدُ بِالْجُلُوسِ إِلَى

جانِبِكَ تُتَرَجِّمُ لِي مَا حَوَتْهُ مِنْ قِصَصِ رَائِعَةٍ ، وَأَدَبِ جَيْمٍ ، وَعِلْمِ
غَزِيرٍ . وَسَأُكُونُ نَخْوَرًا بِكَ ، شَائِدًا بِذِكْرِكَ فِي كُلِّ نَادٍ .

قال « ييب » : ثم عاد المحسنُ ثانيةً يَطْبَعُ عَلَى يَدَيَّ قُبْلَةَ
المطفِ والحنانِ الأَبَوِيِّ .

هَكَذَا يُؤَثِّرُ المَعْرُوفُ فِي أَفئِدَةِ ذَوِي النَفُوسِ النَبِيلَةِ ؛ فَلقَدْ
كَانَ جَمِيلٌ « ييب » سَبَبًا فِي مُنْمُو عَاطِفَةِ الرَّحْمَةِ فِي قَلْبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ
السَّجِينِ ، فَصَارَ وَالِدًا شَفِيقًا ، وَأَبَا كَرِيمًا ، يُنْفِقُ عَلَى « ييب »
مِنْ مَالِهِ ، وَيُرَبِّيهِ بِمَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ ، حَتَّى أَضْحَى سَعِيدًا جَزَاءً
وَفَقَالًا لَمَّا قَدَّمَتْ يَدَاهُ .

عَرَفَ « ييب » ذَلِكَ فَلَمْ يَسَعُهُ إِلَّا الشُّكْرُ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى يَدَيْهِ
يُسَبِّحُهُمَا لَثْمًا وَتَقْبِيلًا ؛ تَقْدِيرًا لَوْفَائِهِ ، وَاعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ . ثُمَّ قَدَّمَ
الْمَعْدِرَةَ عَلَى مَا أَبْدَاهُ مِنْ نَفُورٍ فِي سُؤَالِهِ ، وَاشْتِبَاهِهِ فِي أَمْرِهِ . وَعَاشَ
يَنْمُو بِمُطْفِهِ وَحُبِّهِ ، وَالرَّجُلُ قَرِيرٌ العَيْنِ بِإِخْلَاصِهِ وَحُسْنِ رِعَايَتِهِ
لِلْجَمِيلِ . وَلَا رَيْبَ ؛ فَالإنْسَانُ عَبْدُ الإِحْسَانِ ، وَأَسِيرُ المَعْرُوفِ .

أَحْسِنِ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ

فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانُ إِحْسَانًا

القِصَّةُ النَّاسِعةُ

« نِلْ » الصغيرة وجدها

أو

الضَّاحِية

هناك في ضاحية من ضواحي لندن حيث أُرْخِيَ السُّكُونُ ستائرَه، وتَجَلَّى الهدوءُ يَنْفُتُ في القلوبِ شيئًا من عُرْسِ الطَّبِيعَةِ وبَهْجَتِهَا، عاشت « نِلْ » الصغيرةُ مع جدِّها - وقد بلغَ من الكِبَرِ عِتِيًّا - في منزلٍ عتيقٍ طَوَّحَ الزَّمانُ بمجدرانِه، فأصبحَ خاويًا على عُرْشِه^(١). عاش الجدُّ وحفيدتهُ بعيدينِ عن العالمِ؛ فقد آثرا حياةَ العزلةِ والانفرادِ. ولكنَّ رُوحَ الفتاةِ الطاهرةِ وجدتِ السعادةَ في كلِّ شيءٍ، فعَلَّتِ البِسماتُ ثغرها، وبدتُ للنَّاظِرِ مَرِحَةً كأنَّها في هِناةٍ، وهي في ذلكِ المنزلِ الرهيبِ^(٢) الذي يَرُوعُ^(٣) قلبَ من يَأوِي إليه، أو يَثْوِي^(٤) به.

أحَبَّتْ « نِلْ » جدَّها حُبًّا جَمًّا، وقدَّستُه التَّقديسَ كُلَّهُ،

(١) جمع عريش وهو بيت أو خيمة من خشبٍ وُثْمَانٍ. (٢) المَفزَعُ الخيف

(٣) راعه فارتاع: أى أفرعه فقيرع. (٤) يقيم به

ولم يكن الجدُّ أقلَّ منها تعلقًا وشغفًا ؛ فكثيرًا ما يَرْتَوُ (١) إليها
بنظراتِ العطفِ والحنانِ حتى في أشدِّ ساعاتِ ألمِه ، ولحظاتِ
يأسِه ، رغمَ ما يُقاسيه من حُزنٍ دفينٍ كادَ يَقْضِي عليه ، ويُزهِقُ
رُوحَه ؛ لكثرةِ التفكيرِ في أمرِ قوتِه ، وما يُحِبُّهُ المستقبلُ لتلك
الطفلةِ المسكينةِ إذا نعاها الدهرُ ، واخترمتُه (٢) يدُ المنيَّةِ . فاشتدَّ
به الهمُّ ، وأصبحَ كثيرَ النَمِّ . لم يَطْفُ بِجَفْنِيهِ طائِفُ الكرى (٣) ،
ولم يذُقْ للنومِ طعما ، ولم يجدِ للراحةِ سبيلا ، إلا في تلكِ الفتراتِ
القصيرةِ التي كان يقضيها في نَوْمٍ متقطعٍ في أثناءِ النهارِ على
كرسيِّ حطْمه البلى بجانبِ الفتاةِ وهي جاثيةٌ (٤) أمامَه تحاولُ أن
تتبيَّنَ من أساريرِ وجهه المتجعِّدةِ أسبابَ سُرودِ عقله ، وبلبلةِ (٥)
أفكارِه . وعبثًا ما أرادته ؛ فقد كان أمرُ الشيخِ غامضًا ، ودونِ
الوصولِ إليه خَرْطُ (٦) القتادِ .

تواترتِ الأيامُ وتتابعتِ الليالي ، والجدُّ يزدادُ شحوبه ، وتضمُّف
قواه يوماً بعدَ يومٍ ، حتى صارَ هيكلًا نحيفًا ، صرَعته الهمومُ

(١) رنا إليها : أدام النظر (٢) قطمته واستأصلته (٣) الكرى : الناس

(٤) جالسة (٥) اضطراب أفكاره ، وشدة هم

(٦) قال في المختار : وفي المثل : دونه خَرْطُ القتادِ . خَرْطُ الورقِ حَتَه ، وهو أن

يقبض على أعلاه ثم يمر يده عليه إلى أسفله . والقتادُ شجر له شوك .

وشدائد الأسي، وانشغال البال، وطحنته طحن الرّحى بِفِئَالِهَا^(١).
ازداد ألم الفتاة، وكاد قلبها ينفطر من هول ما تراه، وقسوة
ما رمتها به السنون والأيام في أمل حياتها، وعتاد مستقبلها.
ولم تجد « نيل » مناصاً من أن تمتثل للقضاء المبرم، والقدر
المحتوم، فصبرت نفسها، وسكنت إلى بلواها.

لم يعد ذلك الجدُّ يحتمل أكثر مما احتمل، فاستولت عليه
الحُمى، ووقد يهذى فاقد الإحساس والشعور عِدَّةَ أسابيع،
عرفت « نيل » خلالها أمراً خطيراً أظلم حياتها أكثر مما كانت،
وأوشك أن يُطْفئ بصيص الأمل الذي كان يلمع لها بين ثنايا
الدَّهر؛ فإن المنزل الصغير الذي جمع بين قلبيهما، وأوت
إليه روحهما، قد أصبح ملكاً لغيرها منبئة^(٢) لإسراف جدّها
فيما لا يُفيد. فتجسّم أمامها شبح الفقر المروع^(٣)، واكفهر
في وجهها الزمان، وتقاذفتها عظام المترية^(٤) والضيق. غير أن
من عادة الدَّهر أن يُحلي ويمر؛ فقد عادت إلى الرّجل
بعض قواه، وأبل^(٥) من مرضه، رغم ما أصاب عقله من ضعفٍ

(١) نفال . بكسر الراء وضما : الحجر الأسفل من الرّحى .

(٢) نتيجة وعاقبة . (٣) الخيف (٤) الفقر . (٥) نجا وشفى .

أَقْعَدَهُ عَنِ التَّفْكِيرِ ، وَلَمْ يُبْعِدْهُ عَنِ جَلْسَاتِهِ مَعَ حَفِيدَتِهِ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً يُبَادِلُهَا العَطْفَ ، فَيَعْبَثُ بِأَنَامِلِهَا آثًا ، وَيُرَبِّتُ^(١) عَلَى شَعْرِهَا أَنَا آخِرَ ، وَيُقَبِّلُهَا مِنْ جَبِينِهَا ، فَيَرَى الدَّمُوعَ تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنَيْهَا حُنُوقًا إِلَيْهِ ، فَتَأْخُذُهُ الحَيْرَةُ ، وَيَسْتَدْبِرُ بِهِ العَجَبُ .

وَلَمْ تَكْذِبْ « نِل » تَهْنَأُ بِتِلْكَ البَارِقَةِ ، وَتَسْتَرِدُّ قَلِيلًا مِنْ ذَلِكَ الأَمَلِ المَحْطَمِّ حَتَّى آتَى الوَقْتُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُغَادِرَ فِيهِ المَنْزِلَ . وَلَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ قَدْ اتَّخَذَ العُدَّةَ ، وَلَمْ يَهَيِّ السَّبِيلَ لَذَلِكَ ؛ فَقَدْ كَانَ يَشْغَلُ ذِهْنَهُ فِكْرَةٌ خَفِيَّةٌ مُبْهِمَةٌ لَا تَقْفُ عِنْدَ حِدِّ ، وَلَا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ ، جَرَّ أَذْيَالَهَا إِلَيْهِ حَفِيدَتُهُ الوَحِيدَةُ المَحْتَاجَةُ إِلَى المَعُونَةِ ؛ فَجَعَلَتْهُ حَارًّا مُشْرَدًا اللَّبِّ ، ذَاهِلَ الفَوَادِ ، وَأَهْلَتْهُ عَنِ البَحْثِ عَنِ بَيْتِ آخِرٍ يَقِيهُمَا نَفْحَاتِ البَرْدِ ، وَسَبْرَاتِ^(٢) الشِّتَاءِ . وَيَلْتَجِئَانِ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ . وَذَاتَ لَيْلَةٍ بَيْنَمَا كَانَ فِي جَلْسَةٍ هَادِئَةٍ مَعَ حَفِيدَتِهِ يَدَاعِبُهَا^(٣) كَمَا دَتَهُ ، لَحَتْ عَلَى مُجِيَّاهِ^(٤) أَثَرَ تَغْيِيرِ فُجَائِيٍّ أَرَادَتْ أَنْ تَعْرِفَ سِرَّهُ ، فَبَادَرَتْهُ بِالكَلَامِ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَيْهَا بِالسَّكُونِ قَائِلًا :

(١) التَّرْبِيئَةُ : ضَرْبُ اليَدِ عَلَى جَنْبِ الطِّفْلِ قَلِيلًا لِتَنَامِ .

(٢) السَّبْرَةُ : العُدَّةُ البَارِدَةُ . (٣) يَمَازِحُهَا (٤) وَجْهَهُ .

« لَتَكَلَّمَنَّ بِصَوْتٍ خَافَتْ يَا « نِيلَ » ؛ فَلَوْ عَرَفَ النَّاسُ
مَقْصِدَنَا لَرَمَوْنِي بِالْجُنُونِ ، وَأَخَذُوكَ مِنِّي . إِنَّا لَنْ نَمُكِّثَ هُنَا
أَكْثَرَ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا . وَسَنَسَافِرُ غَدًا عَلَى أَقْدَامِنَا بَيْنَ الْحَقُولِ
وَالغَابَاتِ ، وَاضِعِينَ نَفْسَيْنَا أَمَامَ قِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ يَا عَزِيزْتِي !
سَنُغَادِرُ هَذَا الْمَكَانَ الْمَوْحِشَ ، وَتِلْكَ الْمُنَاطِرَ الْمُفْرِعَةَ إِلَى حَيْثُ
تَحْفُقُ عَلَيْنَا أَعْلَامُ الْحَرِّيَّةِ ، وَالْوَيْةُ السَّمَادَةِ ، كَمَا تَحْفُقُ فَوْقَ
هَامَاتِ الطَّيُورِ ، بَيْنَ أَزْهَارِ الرِّيَاضِ ، وَأَفَانِينِ الدَّوْحِ (١) . »
وما كادَ الشَّيْخُ يَنْتَهِي مِنْ حَدِيثِهِ حَتَّى تَحَرَّكَتِ الْفَتَاةُ فِي مَجْلِسِهَا ،
وَاشْتَدَّتْ ضَرْبَاتُ قَلْبِهَا ، وَمَا لَبِثَتْ أَنْ عَادَتْ إِلَى هَدْوئِهَا ،
وَامْتَلَاتْ إِيمَانًا وَثِقَةً بِاللَّهِ ، فَلَمْ تَفَكَّرْ فِي آلَامِ الرِّحَلَاتِ مِنْ
تَعَسُّرِ الزَّادِ ، وَبِرُودَةِ الْجَوِّ ، وَكَثْرَةِ الْمَطَرِ ، بَلْ هَيَّا لَهَا
الْوَهْمُ أَنْ فِي وَسْمِهَا التَّغَلُّبَ عَلَى تِلْكَ الصَّعَابِ مَا دَامَ ظِلْمُهُمَا
لَا يَفْتَرِقُ .

هَجَعَ الْكَوْنُ وَانْقَطَعَتِ الْأَصْوَاتُ . وَاضْمَأْنَتِ الْأَطْيَارُ إِلَى
أَوْكَارِهَا . وَفِي وَسْطِ ذَلِكَ السَّكُونِ الْمُخِيفِ أَخَذَا يَتَجَاذَبَانِ أَطْرَافَ
الْحَدِيثِ بَيْنَ أَمَلٍ بِاسْمِ ، وَيَأْسٍ مُحْطَمٍ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِهَمَا الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ

من الخيطِ الأسودِ من الفجرِ، أنسلًا من المنزلِ يتلمَّسَانِ الطريقَ
وسَطَ هذا الظلامِ الدَّامِسِ، وفي غَسَقِ اللَّيْلِ الدَّاجِيِ ^(١). ولم يلبثَا
إلا قليلًا حتى وقفَا حائرَينِ. فابتدرت ^(٢) الطفلةُ جدَّها متسائلةً:
« أَى طريقٍ نَسلكُ يا جدِّى ؟ »

نظر الشيخُ إلى حفيدته وأماراتِ الاضطرابِ والحيرةِ باديةً على
وَجْهِهِ، وهيبُ اليأسِ بينَ جوانِحِهِ يَضْطَرِمُ، ثم هَزَّ رأسَهُ هَزَّةً
اليأسِ المتحيرِ الذى لا يَدْرِى إلى آيَةِ جِهَةٍ يَقْصِدُ، وأى طريقٍ
يَخْتَرُقُ. وليس ذلك منه بمعجيبٍ؛ فقد أصبحَ مَشْدُوهُ ^(٣) العقلِ،
حائرَ الفكرِ، فاقدَ الجَنَانِ ^(٤)، عَيَّ اللسانِ، لا يَسْتَطِيعُ هذيانًا
ولا إرشادًا.

حينئذٍ شعرت الفتاةُ بعبءٍ ^(٥) ثقيلٍ أُلْقِيَ على كاهلِها، وعرفتُ
لأوَّلِ وهلةٍ أنها ستكون منذُ ذلك الحينِ القائدةَ المرشدةَ. فوضعت
يَدَها فى يَدِهِ، وخرجا من المدينةِ والناسِ نِيَامًا، لا يدريان أين
يَذْهبانِ. وأخذَا يَسْلُكُانِ شوارعَ طويلاً خَيِّمَ عليها السكونُ،
وانتشرَ فى رِحابِها الهدوءُ، فأثرت الصَّمْتُ البليغُ. وسارا يَهْدِيهِمَا

(١) الظلم (٢) ابتدرت : عاجلت (٣) مُشْدُوهُ الرجلُ : دُحْش. وقال

أبو زيد : مُشْدَةُ الرجلُ : مُشْفِلٌ لا غير (٤) العقل (٥) حمل

نورُ الصبّاحِ المبكرِ ، إلى أن خرجت الشمسُ من كِناسِها^(١) ،
تَمَلُّاً بأشعَّتِها المسجديّةِ الدنيا حياةً وسناً^(٢) . وامتلات الطرقاتُ
بالغادينِ والرائحينِ . ظلًّا سائرينِ آمنينِ حتى قضيا سحابةَ
نهارهما . وما كادَ المساءُ يُقبلُ بظلامِهِ الحالكِ ، حتى ألقيا عصاً
التسيارِ^(٣) في ضاحيةٍ من ضواحي لندنَ ، فقضيا تلك الليلةَ في
حجرةٍ استأجراها في كوخٍ صغيرٍ .

وفي اليومِ التّاليِ استأنفا سيرَهما قبل أن تطلعَ عليهما الشمسُ .
وما زالا سائرينِ حتى أنهكهما المشى ، وأضناهما الجهدُ^(٤) ، وأثرتُ
فيهما مشقةُ السّفَرِ . فأويا إلى ظلِّ شجرةٍ وارفَةٍ يتقيانِ^(٥)
في ظلّالها ، ويقضيانِ في كنفِها وقتَ الظّهيرةِ ، ويتقيانِ أشعةَ
الشمسِ . وبعدَ أن استجمعا نشاطَهما ، أخذَا طريقَهما إلى إحدى
المدنِ ليقضيا فيها ليلتهما .

وبينما هما سائرانِ تقابلا مع اثنينِ من المسافرينِ أمنا إليهما ،
واطمأننا إلى جانبِهما ، فاستمرّا في رُفقتِهما يومينِ مرثوا خلالها

(١) من مُخبئِتها (٢) السّنة : الضوء (٣) السير (٤) الجهد : المشقة .

(٥) يتقيانِ في فيها : يستظِلّانِ في ظلّها .

بعضِ المدنِ والقَرَى حتى وصلوا جميعاً إلى مكانِ السِّباقِ مع رفيقينِ جديدينِ من الشُّبانِ .

وقد رأت « نيل » فيهم قسوةَ المعاملةِ ، وغبابةَ الحالِ ، ولكنها لمست بين جنوبهم قلوباً تمتلئُ شفقةً وتفيضُ حناناً .

وفي ضوءِ السِّباقِ سَنحت لها الفرصةُ لكسبِ ما تَقَاتُ به هيَ وجدِّها ؛ فحاولت بيعَ بعضِ الأشياءِ للنِّظارةِ ^(١) . وكم كانت تؤدُّ السفرَ في حمايةِ هؤلاءِ الشُّبانِ لولا أنها شعرت بسوءِ طويَّتهم وخُبثِ دَخيَلَتهم ، وما تُكِنُّه نفوسُهم من الخيانةِ لهما ؛ فقد اشتبهوا فيهما ، وهما بإبلاغِ أمرِها إلى الشرطيِّ ليرجعا إلى حيثُ كانا .

أطلقت « نيل » عِنانَ الفكرِ والتَّأمُلِ ، وسبحت في بحارِ الخيالِ ، فاهتدت إلى الحقيقةِ ، وأيقنت أن أمرَ الجدِّ لو عُرفَ لانتهى به الطَّوافُ إلى مستشفىِ المتهوِّنينِ . فيجرمُ نورَ الشمسِ ورؤيةَ السماءِ ، وتفقدُ ما كانت تحسُّه من لذةٍ وغبطةٍ وهي بجوار جدِّها ، يتبادلان العطفَ والمودَّةَ ، ويرتشفان كثوسَ الصفاءِ والحياةِ والإخلاصِ ، فأخذت تبحثُ عن مخرَجٍ من أعينِ الرُّقباةِ لتقطعَ

(١) النِّظارةُ : القومُ ينظرون إلى الشيءِ .

حَبَائِلَ أَهْلِ الشَّرِّ، وَتَرَدَّ كَيْدَهُمْ حَتَّى تَهَيَّأَ لَهَا، فَوَضَعَتْ يَدَهَا فِي يَدِ جَدِّهَا، وَسَارَا لَا يَلْوِيَانِ عَلَى شَيْءٍ . فَوَصَلَا إِلَى قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ ، وَرَأَاهُمَا مَدْرَسُ بِنَاهَا ، طَيِّبُ الْقَلْبِ ، سَهْلُ الْخُلُقِ ، حَسَنُ الْمَعَامَلَةِ . فَرَقَّ لِحَالِهِمَا ، وَعَطَفَ عَلَيْهِمَا ، وَهُوَ مُعْجَبٌ بِعَذُوبَةِ « نِل » الْمَسْكِينَةِ ، وَكَمَالِ طَبْعِهَا . وَرَحَّبَ بِضِيَاقِهِمَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَقِيَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْكَرَمِ مَا أَنْسَأَمَهَا مَشَاقَّ السَّفَرِ ، وَوَيَالَاتِ الْإِغْتِرَابِ ، وَعَذَابِ التَّزْوِجِ عَنِ الدِّيَارِ .

وَمَا أَذِنَ مُؤَدِّنُ الرَّحِيلِ وَدَّعُهُمَا مَدْرَسُ الْقَرْيَةِ ، وَسَارَا فِي طَرِيقٍ رَيْفِيَّةٍ جَمِيلَةٍ قَدْ أُسْبِتَتْ عَلَيْهَا الطَّبِيعَةُ ثِيَابًا مُوشَّاءَةً^(١) مِنْ جَلَالِهَا الْقُدْسِيِّ ، وَافْتَنَّتْ يَدُ الْخَالِقِ فِي تَنْسِيقِ أَشْجَارِهَا الْفَيْنَانَةِ^(٢) . فَأَوَتْ إِلَيْهَا الْعِنَادُلُ وَالْأَطْيَارُ ، وَوَجَدَتْ فِيهَا مَرْتَمًا خَصِيْبًا . وَأَنْطَلَقَتْ صَادِحَةٌ^(٣) شَادِيَةً ، تَتَرَنَّمُ بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ ، مُرَدِّدَةً آيَاتِ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ لَخَالِقِ السَّمَوَاتِ ، وَمُبْدِعِ الْكَائِنَاتِ . لَقَّتْ « نِل » وَجَدَّهَا هَذِهِ الْمَنَاطِرُ الرَّائِعَةَ ، وَأَنْسَأَ بِتَغْرِيدِ الطَّيُورِ ،

١) مرقومة منقوشة . (٢) الكثيرة الأغصان . (٣) صدح الرجل والطائر : رفع صوته بفناء .

وتَنَاطُوحٌ ^(١) الأَفْئَانِ ، فَاطْمَأَنَّ قَلْبَاهُمَا ، وَعَاوَدَهُمَا الشَّرُورُ ، وَوَدَّأَ
لَوْ بَقِيَا فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ مُدَّةَ سَفَرِهَا . وَلَكِنْ أَنَّى لَهَا ذَلِكَ ،
وَقَدْ وَصَلَ بِهِمَا السَّيْرُ إِلَى طَرِيقٍ مُتَعَرِّجَةٍ كَثِيرَةِ الْإِتْوَاءِ ، وَغَرَّةٍ
مُقْفِرَةٍ لَمْ يَجِدَا فِيهَا سُبُلَ الرَّاحَةِ وَالسَّرُورِ ؛ فَتَسَرَّبَ إِلَيْهِمَا الْيَأْسُ ،
وَدَبَّ فِي أَعْضَائِهِمَا دَيْبُ التَّعَبِ ، فَسَارَا يُبْطِئُ حَتَّى الْمَسَاءِ .
وَصَلَا إِلَى هَوْدَجٍ فِي جَانِبِ مِنَ الطَّرِيقِ ، عَلَى شَكْلِ مَنْزِلٍ
صَغِيرٍ جَمِيلٍ ، أُقِيمَ أُسَاسُهُ عَلَى تَجَلَّاتٍ ، وَقَدْ جَلَسَتْ عِنْدَ بَابِهِ
سَيِّدَةٌ بَدِينَةٌ ، أَمَامَهَا مَائِدَةٌ صَغِيرَةٌ ، بِمَشُوشٍ أَيْضًا ، تَشْرَبُ قُدْحًا
مِنَ (الشَّاي) وَهِيَ تَتَفَيَّأُ ^(٢) فِي ظِلِّ السَّمَاعِدَةِ ، مُتَسَرِّبَةً لِبَاسِ الْهَيْبَةِ
وَالوَقَارِ ، تَحْسِبُ ^(٣) أَنَّهَا تَتَنَاوَلُهُ عَلَى مَوَائِدِ الْمُلُوكِ وَأَرْبَابِ التَّيْجَانِ .
أَرَادَتْ « نِلَ » أَنْ تَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا ، وَلَكِنْ جَلَالُهَا عَقَدَ لِسَانَ
الْفَتَاةِ أَنْ يَنْطِقَ ، وَأَلْجَمَ تَفَرَّهَا أَنْ يَفُوهَ ، وَلَكِنِهَا بَعْدَ تَرَدُّدٍ وَإِقْدَامٍ
تَجَشَّمَتْ مَشَقَّةَ السُّؤَالِ فَاقْتَرَبَتْ مِنْهَا ، وَسَأَلَتْهَا عَنِ الْمَسَافَةِ إِلَى
أَقْرَبِ بَلَدٍ يَذْهَبَانِ إِلَيْهَا ، وَبَزَّ كَنَانٌ إِلَى الرَّاحَةِ فِيهَا . فَأَخْبَرَتْهَا
بَأَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ أُمِّيَالٍ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهَا نَظْرَةً أَمَّتَتْ فِيهَا بِجَاهِهَا ،
وَمَا أَصَابَهُمَا مِنْ نَصَبٍ ^(٤) الْهَجْرَةِ ، وَعَنَاءٍ ^(٥) الرَّحِيلِ . فَلَمْ تَكْتَفِ

بإعطائهما (الشاي)، بل دعتهما إلى الإقامة معها الليلة رافةً بهما، وإشفاقاً عليهما، فقبلا الدعوة شاكرين .

كانت صاحبة الهودج واسمها السيدة « جازي » تُديرُ معرضاً للشَّمع، فطلبت إلى الفتاة أن تقوم بتقديم الصورِ إلى زائري المعرض؛ لما ظنته فيها من حُسن الخلق، ورقة الشيم، وعذوبة اللسان، وجمال الطبع، ووعدتها بأن تُمدّها بما يكفل لها وبلجدها حياةً رغداً مطمئنةً . فقبلت الفتاة، وأثنت على حُسن رعايتها . وهكذا قدّر لها أن تعيد سيرتها الأولى؛ إذ نعت بالسعادة مع جدّها الهرم في ظلّ تلك السيدة البارة الرحيمة .

دار الزمانُ دورته، وعاد الجدُّ إلى سالفِ أيامه من بوئٍ وشقاء؛ فقد خرج ذات ليلةٍ مع حفيدته، وضرباً فيما حول المدينة من رياضٍ جميلةٍ، وحقولٍ زاهرةٍ، ومروجٍ خضراءٍ، يمتّعان النفسَ بجمالِ الطبيعةِ الأخاذةِ، ويستعيدان ذكرىَ الماضي، وما صارَ فيه من نعيمٍ ورفاهيةٍ^(١) . وبيناهما في أحلامهما إذ عَصَفَتْ بهما ريحٌ شديدةٌ أنستهما آمالهما، وبددتْ سُحْبَ هناءتهما، فألجأتها^(٢) إلى حانةٍ صغيرةٍ أخذتا مكانهما في ناحيةٍ منها حتى

نزول العاصفة ، وتهدأ الطبيعة النائرة . ولكن شاء القدر أن تقع
المسكينة نهبا للشقاء مرةً أخرى ؛ فقد حانت من الشيخ التفاتة
فوقع نظره على جماعة من الأشرار يلهون ، فدنا منهم يرقب
حركاتهم في اهتمام ، فعاوده الحنين إلى اللهو واللعب ، وسرت
بين جوانحه ذكريات الماضي ، وتطلعت نفسه إلى مشاركتهم .
ولكن كيف السبيل إلى إشباع هذه الرغبة الجامحة التي انتهت به
إلى هذا المصير المؤلم ، وجعلته جواب آفاق ؟ وأنى له بالمال الذي
يدفعه ثمنا لهذا اللعب الآثم الذي طالما أظلم الحياة في وجوه
السعداء ؟ ما كان لهذا الشيخ القاني بعد أن شعر بشيء من العافية
والسعادة بفضل حفيدته البائسة « نيل » إلا أن يهدم صرح
سعادتها الجديدة ، وأن يظهر شيطانا مريدا يسرّه أن يشقى غيره ؛
فقد استولى على حافظه النقود التي لحفידته ، وفيها كل ما تملك
من حطام الدنيا . فنضرت إليه أن يرحم ضعفها ، ويكف عما
شرع فيه . ولكن حمى اللعب قد لعبت بعقله الغافل ، وأفقده
رُشده ، فضرب بقولها عرض الحائط ، وتقدم إلى الجماعة شرها
في اللعب كأنه يريد أن يعوض ما فاتته . ولما لم تجد الفتاة

سبيلاً إلى إقناعه جلست حزينه القلب ، باكية العين ، ذاهلة الفؤاد ، تفضل أن يهبط^(١) عليه ملك الموت فيقبض روحه ، عن أن تراه متهاكاً على اللهو الذي كان سبباً في ضياع منزله وسوء حاله .

انقضى الليل إلا أقله ولم ينته اللعب ، فلم تجد : « نل » مناصاً من المبيت في تلك الحانة ، فارتمت على كرسيها خائرة القوى . أخذ الكرى^(٢) بما قيد أجفانها ، فرأت شبحاً^(٣) في المنام سطا على كيس نقودها ، فسلب ما فيه بيدٍ مرعشة ونظر حائر ، يرقبها حيناً ، ويصني حيناً آخر ؛ خوفاً من أن تستيقظ . ولكنها استيقظت من نومها منزعجةً ، وهبت من رقادها مذعورةً ، فوقمت عيناها على جدّها وهو يسترق الخطو ويسرق الدراهم .

هكذا قدر للفتاة أن تودع أيام الصفو والهناة والسعادة ، وأن تستقبل نذر الشقاء ؛ فقد أصبح من المتعذر أن يقبلع الشيخ عن طغيانه ، وزاده توسل فتاته تهافتاً على اللهو ، فانقلب عطفه على حفيدته غلظةً وخشونةً ، وأصبحت وداعته شراسةً ، ولينه فظاظةً . واشتد في طلب النقود منها ليظفي غلته ، ويروي ظمأه ، ولكن

ما العَمَلُ ، وهى لا تمتلكُ سوى راتبها الضئيل الذى تقاضاهُ
من السيدةِ « جَارِلى » ؛ ولما لم تُسَعِفْهُ بِالْمَالِ الكافى لِإِشْبَاعِ نَهْمَتِهِ
عَوَّلَ عَلَى سَرَقَةِ السَّيِّدَةِ « جَارِلى » التى أَوْثَمُهَا بَعْدَ ضَلَالِهَا فِي
بَيْدَاءِ الْفَقْرِ الْمُدْقِعِ ، وَصَحْرَاءِ الذُّلِّ وَالْفَاقَةِ ، وَأَحْسَنْتَ إِلَيْهِمَا بَعْدَ مَا
حَلَّ بِهِمَا مِنْ أَلْوَانِ الْعَذَابِ ، وَالْمِ السَّفَرِ وَالْإِغْتِرَابِ .

قَلَبَ الدَّهْرُ لِنِئْلِ ظَهَرَ الْمَجَنِّ ، وَبَدَّلَهَا مِنْ نَعِيمِهِ بُؤْسًا ،
وَمِنْ سَعَادَتِهِ شِقَاءً ؛ فَنِي اللَّيْلَةِ الَّتِي هَمَّ فِيهَا الشَّيْخُ الْأَثِيمُ بِسَرَقَةِ
رَبَّةِ نَعْمَتِهِ ، أَخَذَتْ الْفَتَاةُ يَدَ جَدِّهَا قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى جَرِيمَتِهِ ،
وَتَرَكْتَ تِلْكَ الْبَلَدَةَ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ رَابِطَةَ الْجَأَشِ ، غَيْرَ مَحْتَاجَةٍ
إِلَى نَصِيحَةٍ أَوْ مُسَاعَدَةٍ ، مُخْتَرِقَةً حَارَاتِ الْقَرْيَةِ وَأَزَقَتَهَا ، تَرْتَعِدُ
مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ ، وَقَدْ تَوَالَّتْ عَلَيْهَا الْهَمُومُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَتَرَاءَتْ
عَلَى صَفْحَةِ ذَهْنِهَا الْمَكْدُودِ ذِكْرِيَاتُ الْمَاضِي التَّعَسُّةُ ، وَتَصَرُّفَاتُ
الدَّهْرِ الْقَاسِيَةِ . فَلَمْ تَرَبُّدًا مِنْ تَسْلِيمِ نَفْسِهَا لِلإِلَهِ الْقَادِرِ يُصَرِّفُهَا
أَنَّى شَاءَ . فَاقْتَضَتْ عِنَايَةَ الْبَارِي أَنْ يَبْدَأَ رِحْلَةَ أَوْسَى مِنَ الْأُولَى
ذَاقًا فِيهَا مِنْ أَلْوَانِ الْآلَامِ مَا نَأَتْ عَنْ سَمَلِهِ الْجِبَالُ ؛ فَقَدْ نَأَمَا
تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْخَلَاءِ يَتَوَسَّدَانِ الثَّرَى ^(١) ، وَيَلْتَحِفَانِ بِالسَّمَاءِ .

وفي الصَّبَاحِ الباكرِ عَرَضَ عليهما بعضُ المارِّينَ أَخَذَهُما على
 مَرَكَبَاتِهِم ، فَلَقِيَتِ (نِ ل) مِنْهُم عَطْفًا وإِشْفَاقًا ، وَلَكِنَّهُم كانوا
 كَثِيرِي الشَّغَبِ والمَشَاجِرَةِ فيما بَيْنَهُم . فوجِفَ (١) قلبُ الفتاةِ ،
 ومَلَأَ الرَّوْعُ (٢) قُورًا أَدَها . وبيْنَاهُمُ في طَرِيقِهِم إِذْ تَغَيَّرَتِ الحَالُ ،
 واكْفَهَرَّ وَجْهُ الكَوْنِ ، فأَمَطَرَتْهُم السَّمَاءُ مَطَرًا هَتُونًا (٣) ، واستَمَرَّتْ
 تَهْمِي (٤) وَيَنْدَفِعُ وَدَقُّهَا (٥) حَتَّى وَصَلُوا إِلى مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ بَعْدَ أَنْ
 جَهَدُوا . فَأَخَذَتْ « نِ ل » وَجَدَّها يَجُوسَانِ خِلالَ الدِّيَارِ ، وَجُيُوبُهُما
 خَالِيَةٌ الوَفَاضِ ، وَلَيْسَ مَعَهُما شَرُوى تَقِيرٍ يَحْفَظُ رَمَقَهُما (٦) .
 فَتَفَرَّسًا أَوْجَهُ المارَّةِ عَلَّهُما يَجِدَانِ مِنْ بَيْنِهِم مِنْ يَرِيقُ لَضَعْفِهِما
 فَيُكْرِمُ وَفَادَتَهُما . وَلَكِنْ لَمْ يُغْنِ البَحْثُ قَتِيلًا ، فافْتَرَشَا
 البَسِيطَةَ ، وَقَضِيَا على تِلْكَ الحَالِ يَوْمَيْنِ ، لَمْ يَحْصُلَا فِيهِما على
 قُوتِ سِوَى رَغِيفِ تَقَاسِمَاهُ . ولما جَاءَ اليَوْمُ الثَّالِثُ — وَقَدْ بَلَغَ
 الضَّعْفُ بِالْفَتَاةِ مَبْلَغَهُ ، وَأَنهَكَها المَرَضُ ، وَلَمْ تُظْهَرْ شِكَايَةُ وَلَا المَاءُ —
 صَمَمَتْ في الرَّحِيلِ مِنْ تِلْكَ المَدِينَةِ الصَّاخِبَةِ إِلى الرِّيفِ الهادئِ
 تَشُدُّ أَمْنًا وَقَرَارًا ، وَتَأْمُلُ خَفْضَ العَيْشِ ، وَرِفَاهَةَ الحَيَاةِ ،

(١) اضطرب (٢) الخوف والفرع (٣) هتت المطر : قطر

(٤) تيسل (٥) مطرها (٦) الرمق: بقية الحياة

فكابدت هي وجدتها مشاق السفر . وفي الطريق لاح لها عن
بعدي شبح مسافر يسير أمامها ، فأحياها شعاع الأمل ، وتقدمت
تستحيث السير لتأنس به ، ولكن كيف الوصول وهي متهدمة
القوى ؟ فلم تلبث أن هوت على وجهها تئن وتصرخ بصوت
خافيت ، أملكته حادثات الزمان ، ونكبتة النائبات ، وقصمته
الأرزاء ؛ فقد كانت تجدد في السير على الطوى^(١) أياما ، وتغالب
البؤس والبلاء حتى سقطت خائرة القوة ، مقطعة القلب .

سمع المسافر أينها ، فهرول^(٢) إليها لانتقادها ، فإذا هي فاقدة
الوعي ، فأشفق عليها ، وحملها بلين ورفق إلى فندق صغير
قريب منهما ، حيث وضعت بعناية في الفراش . استشار في
أمرها الطبيب ، فكتب لها الدواء ، ووعدته الشفاء . وسرعان
ما عاد إلى « نيل » رُشدُها ، فوقع نظرها لأول وهلة على ذلكم
الشخص الذي كان سبب بقائها ؛ فإذا هو المدرس صاحب الأيدي
البيضاء عليها من قبل ، كان في طريقه إلى منزله الجديد .

أبلت^(٣) « نيل » من مرضها ، وعاودها مرحها وسرورها ، فنصح

لها المدرّسُ بِمُرافِقَتِهِ إلى القَرِيَةِ التي نُقل إليها ، وأخبرَها بأنه سيَبْذُلُ قُصارَى جُهدِهِ في البَحْثِ عن عَمَلِ يَكْسِيانٍ مِنْهُ قُوْتَهُما ، فَأَلا إلىهِ ، وَجَنَحًا إلى مَشُورَتِهِ . وَأَقَامًا في تلك القَرِيَةِ الرِّيفِيَّةِ هادِئِينَ مُطمَئِنِّينِ . وَكثيرًا ما كانت « نل » تَذهبُ خُلُصَةً إلى الكَنِيسَةِ ، وَتَجلِسُ بين الصُّورِ وَالتَّمائيلِ المُنحوتَةِ على القُبُورِ ، فَتَكرَّرُ في أَيامِ الصَّيفِ ، وَجَمالِ الرِّبيعِ ، وَتَفرِيدِ الطُّيورِ ، مِمَّا تَنْتَبِشُ بِهِ الحِياةَ ، وَيَمَلَأُ النُّفُوسَ بِهَجَّةٍ وَرُوعَةٍ . وَلَكنَّ وَجودَها بين أَحْضانِ الرُّمُوسِ ^(١) ، وَمَا قاسَمَتَهُ في حِياتِها مِنْ ضُروبِ الشَّقَاءِ وَأَلوانِ العَذابِ — أَيَقْظا في رُوحِها حَبَّ الدَّارِ الباقِيَةِ ، وَحُبِّبا إليها التُّرُوعَ عن الحِياةِ الفانِيَةِ . حيثَ تَرَفِّفُ عَلَيْها ملائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، وَرُسلُ السَّلامِ .

غالَتْ « نل » في أَفكارِها وَهَواجِسِها ، وَأَخَذَتْ تَسْتَرِجِعُ أَيامَ بوئِسيها وَصَبْرِها على الشَّدائِدِ ، فَمَازادَها ذلكَ إِلا وَهَنًا ^(٢) على وَهَنٍ ، فَبداً نَجْمُ حِياتِها يَأْفلُ ، وَأَخَذَتْ زَهْرُها تَدْبُلُ ، حَتى وَافاهَا القَدَرُ المَحْتومُ . فَلَبَّتْ نِداءَ رَبِّها غيرَ أَسْفَةٍ على حِياتِها ، وَزَهَبَتْ ضَحيَّةً جَدَّها ، وَدُفِنَتْ في مَقابِرِ الكَنِيسَةِ التي كانت

تَجَلَّسُ إِلَيْهَا مُسْتَسْلِمَةً لِحَوَاطِرِهَا الْمُؤَلِّمَةِ. فَحَزِنَ الْجَدُّ حُزْنًا شَدِيدًا؛
فَقَدَّ فَارِقَهُ قَبَسُ الْأَمَلِ الَّذِي اسْتِضَاءَ بِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ عَوْنًا فِي
الْمِحَنِ، وَهَادِيًا وَقْتَ الْبَلَاءِ. فَأَقَامَ عَلَى قَبْرِهَا جَائِئًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ،
يَنْدُبُ حِظَّهُ وَسُوءَ مَصِيرِهِ، وَأَمَامَهُ قُبَّةٌ لَهَا مِنَ الْقَشِّ،
وَبِجَانِبِهِ السَّلَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُهَا - وَعَيْنَاهُ تَقْطُرُ دَمًّا - يَنْتَظِرُ
أَوْبَتَهَا^(١) فَلَا تَعُودُ. فَلِلَّ حَيَاةٍ، وَأَبْنَصَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ،
وَوَدَّ مِنْ صَمِيمٍ فُؤَادِهِ أَنْ يُوَدِّعَ الْعَالَمَ، فَيَلْحَقَ بِمَنْ بَدَلَتْ
حَيَاتُهَا رَغْبَةً فِي إِسْعَادِهِ.

بَقِيَ الْجَدُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ يَنْعَى^(٢) حَفِيدَتَهُ، وَقَدَمَاهُ تُسْرَعَانِ
الْخَطْوَ إِلَى هَاوِيَةِ الْقَبْرِ، وَرُوحُهُ يُنَاجِيهَا مَلَكُ الْمَوْتِ مِنْ
أَبْوَابِ السَّمَاءِ، حَتَّى فَاضَتْ مُسْتَسْلِمَةً إِلَى خَالِقِهَا. فَوَسَّدَ التُّرَى^(٣)
بِحِوَارِ فَتَاتِهِ، تُظَلُّهُمَا سَمَاءُ قَبْرِ وَاحِدٍ، يَرْتَشِفَانِ رَحِيقَ الْحَيَاةِ الْخَالِدَةِ،
بَعْدَ مَا جَرَعَا أَقْدَاحَ الْمَذَلَّةِ وَالْهَوَانِ، بَيْنَ أَحْضَانِ الْحَيَاةِ الزَّائِلَةِ.

﴿ انتهى والحمد لله ﴾

(١) رجوعها (٢) التَّعَى : خبر الموت

(٣) التُّرَى : التراب

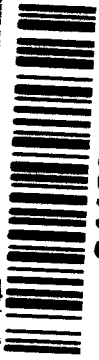
فهرست

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٧	حياة تشارلز دكنز
١٦	القصة الأولى : دايفد كبر فيلد
٣٧	» الثانية : كناس هولبورن — أو طريد المجتمع
٥٤	» الثالثة : پول دُمبي الصغير — أو الأمل الضائع
٧١	» الرابعة : صانعة اللُّعب — أو من انخيل إلى الحقيقة
٨٤	» الخامسة : (المَرَكورنس) — أو الخادم المسكينة
٩٦	» السادسة : (درت) الصغيرة
١١١	» السابعة : (تم) الكسيح الصغير
١٢٢	» الثامنة : مخاطرة (يبب) -- أو لا يضيع جيل أبنا وضع
١٤٠	» التاسعة : (نل) الصغيرة وجدها — أو الضحية

مطبعة المارف ١٩٣٩/٣/٢٠٥٠/١



Bibliotheca Alexandrina



0412583